مذكرات البارودي

من شاء منكم أن يعز بلاده
فليسع سعي معز ها البارودي
«الرصافي»

الجزء الثاني

دمشق ١٩٥٢ م

إذا اختصم الحق وأخي ، فأنا مع الحق ارسطو

مذكرات البارودي

ستون سنة تتكلم

بقلم
فخري البارودي

الجزء الثاني

دمشق عام ١٩٥٢

عاطف العجّة

طبع في مطابع « عجه واتحاد »
بدمشق

الاهداء

الى شبان العرب :

اهدي مذكراتي هـــذه ليطلعوا على صفحات من تاريخ بلادهم الحديث لعلهم يجدون فيها عبرة وذكرى .

دمشق ، اول آب ١٩٥١

فخري البارودي



رسمي

قبل سفري الى اوربا عام ١٩١١

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

هـــذا هو الجزء الثاني من مذكراتي التي ستصدر تباعــاً في عشرة اجزاء .

هذه المذكرات تدوين صحيح وتسجيل جديد لحوادث ستين سنة لم يحسر عنها نقاب ، ولم يتحدث عن بعض نواحيها مؤرخ برغم ماتحفل به أيامها من زعازع ، وما تموج به لياليها من أرزاء ، وبالرغم من هذا الصراع بين الحق المهضوم والباطل المفروض : بين حر أعزل ضعيف ومستعمر مسلح قوي ، بين شعب مسالم ذكي ومتسلط طماع يرتكز على طـائفة من المأجورين الذين عاشوا كالسوس ينخر في جسم العروبة فاحرص ايهـا القارىء الكريم على ضم اجزاء هذه المجموعة التاريخية الفريدة الى بعضها لتكون لديك مجموعة كاملة تقف منها على اسرار الحقبة الاخيرة من تاريخ هذه البلاد .

وأسباب تأخر صدور هـذا الجزء هو اني كنت اتفقت مع صاحب الحياة على نشر المذكرات في جريدته وفعلا نشر الجزء الاول متسلسلا

فيها ونظراً لبعدي عن بيروت اضطررت لقطع النشر في الجريدة وعزمت على طبعها اجزاء ولأسباب عديدة تأخرت عن اصدار هذا الجزء وارجو ان تساعدني الظروف على اتمام النشر في مدد قريبة فلا تتأخر الاجزاء الباقية عن الصدور في اوقاتها حتى تتم السلسلة وعلى الله الاتكال .

فخري البارودي

فكرة السفر الى اوربا

مداوم في قلم محكمة الاستئناف :

ذكرت في الجزء الاول ان والدي بعد ان كان يعدني بارسالي الى الآستانة . نكل وأراد ان يزوجني ليفرح بي وعقد عقد نكاحي كما جاء سابقاً ومضت سنة (١٩١٠) وأنا بدون عمل ورأس العاطل كما لايخفى هو محطة الشيطان وبامكاني ان أقول انني لم أترك ناحية من نواحي (الجهل) الا جرّبت حظي فيها حتى مللت فتقدمت باستدعاء الى مدعي عام الاستئناف طلبت فيه قبولي في قلم محكمته مداوماً بدون راتب عساي َ اتمكن من التمرن على الكتابة التركية الرسمية فيساعدني ذلك في مستقبلي . فقبلت وداومت ولكن دوامي لم يكن يأخذ جميع وقتي بل كنت غير مجبور على قضاء جميع اوقات الدوام في العدلية بل كنت أذهب حسبما أريد ولما كانت كتابتي التركية بالنسبة الى كتابة الاخرين من الكتّاب أصلح من كتابتهم كان رئيس الكتاب يعتمد علي بيباض مايلزم وعلى هذا بقيت مداوماً الى ان فررت الى اوربا كما سيجيء .

***

والدي في الآستانة :

في عام ١٩١١ م حصل لوالدي اشغال خاصة في الآستانة فسافر اليها في اوائل كانون الثاني وكان بعض رفقائي في المدرســـة واكثر ابناء الصفوف الذين تخرجوا بعدي سافروا الى (اسطنبول) الآستانة وبقيت مبلبل الفكر اضرب اخماساً في اسداس للخروج من هذه الورطة

الوبيلة وكنت افكر في أكثر اوقاتي بالحالة التي وصلت اليها وقد خطر لي خاطر كان شغلي الشاغل من بعد سفر والدي وكانت نفسي تحدثني بلزوم تنفيذ هذه الفكرة وهي ان اسافر الى اوربا لتحصيل الزراعة في احدى مدارسها طالما منعني والدي عن السفر الى الآستانة . راجعت الاستاذ محمد بك كرد علي بهذه الفكرة فاستصوبها وشجعني عليها وما زلت افكر بها حتى تجسمت برأسي .

وصرت كالمأخوذ ان قمت او قعدت ، ان نمت او صحوت لا افكر الا بالسفر وجعلت الخيالات تمر في مخيلتي مرور مناظر السينما فبينما كنت افكر في ايام المدرسة الماضية ينتصب امامي المستقبل فمرة أرى نفسي في مدرسة زراعية في فرانسا واخرى أرى نفسي في دمشق ثم يمر أمامي مناظر حياة عائلية فيها اولادي . يطلبون مني « خرجية » وأنا فقير ومرة ارى السعادة في يدي وهي شهادة المدرسة الزراعية ، ثم يمر في مخيلتي المجد والعلاء ومراتب العلم والأدب واخيراً تمكنت الفكرة مني وعزمت على السفر الى فرانسا والدخول في مدرسة زراعية فيها لأني رأيت بعد شدة التفكير انني لا يمكنني سحب فلس واحد من كد يميني في هذه البلدة لأن الناس كانوا يعيرون أبناء « الذوات » اذا اشتغلوا فكيف اشتغل وانا فخري بن محمود البارودي ووحيده ، أي عمل يليق بي القيام به دون ان يعيرني الناس فيه ، أي صنعة اقوم بها دون ان ينقدني المجتمع فيها . هام ابناء الذوات أكثرهم عائشون في دور اهلهم يتناولون رواتبهم من آبائهم وهم في جهلهم يسبحون ، اكبر شاب منهم لا يحسن قراءة رسالة او كتابة مكتوب فهل ابقى مثلهم أمد يدي لوالدي أشحذ منه راتبي الشهري بدلا من ان تكون بيدي صنعة اساعد والدي من نتاجها . هذا بعض ما تشخص لي

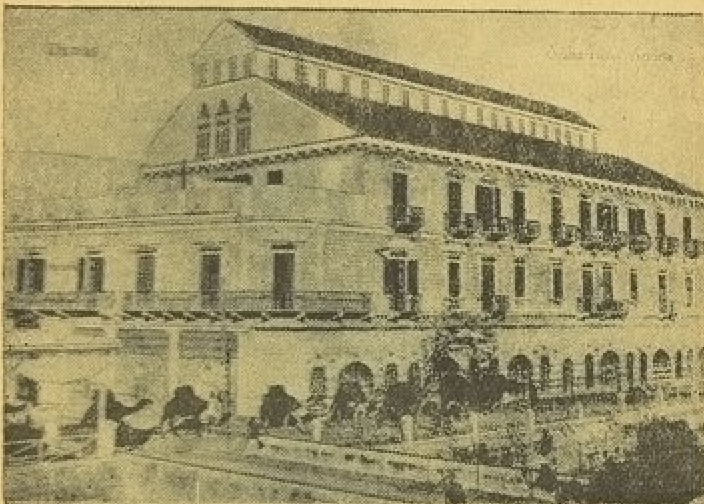
فوطدت العزم على السفر وجمعت ماقدرت جمعه من المال فبلغ مائة وثلاثين ليرة افرنسية ذهبية دفعت ديوني منها واشتريت أدوات طبخ وضعتها في صنـــدوق خشبي صغير ونقلت جميع ملابسي التي اصطحبتها معي من « الجواني » دائرة الحرم الى « البراني » ووضعتها في الحقيبة التي اشتريتها خصيصاً لهذه السفرة . حضرت الاشياء ويوم الجمعة الواقع في ١٥ شباط سنة ١٩١١ وصلتني برقية من والدي من اسكندرونة يشعرني فيها بأنه سيصل الى دمشق الاحد مساء وخوفاً من ان يصل والدي الى دمشـــق قبل مغادرتي اياها أسرعت باتمام جميع مايلزمني وقطعت علائقي ودفعت ديوني التي لاتزيد عن بضع ليرات وأخذت البرقيـــة الى خال والدي (عطا باشـا البكري) وعدت الى الدار واطلعت سيدتي الجدة لوالدي ووالدتي على البرقية وقلت لهما اني سأذهب



خال والدي عطا باشا البكري

الى دوما لأرى الاعمال واعود غداً لاخبر والدي بعـــد وصوله بحسن سيرها وأمرت الحوذي باحضار العجلة (العربة) ونقلت الامتعة اليها دون

ان يشعر بي احد وبعد ان خرجنا من المحلة الى الشارع قلت اذهب الى فندق « اوتيل فيكتوريا » وكان مكانه مقابل البنك السوري اليوم على ضفة بردى الثانية ووضعت الحقيبة والصندوق في الفندق وقلت للحوذي



اوتيل فيكتوريا في دمشق

اذهب الى الدار بعد قليل واخبرهم اني بقيت في الضيعة لاشغال ضرورية وغداً صباحاً تعال الى الفندق وذهب الحوذي بالعربة وبقيت في الفندق .

***

الفنادق في دمشق :

لم تكن دمشق تعرف الفنادق بل كانت الخانات تقوم مقام الفنادق فيها وسيأتي بحثها منفرداً وأول فندق « اوتيل » تأسس في دمشق هو « اوتيل ديمتري » وديمتري هـــذا رجل نمساوي فتح غير الفندق مقهى

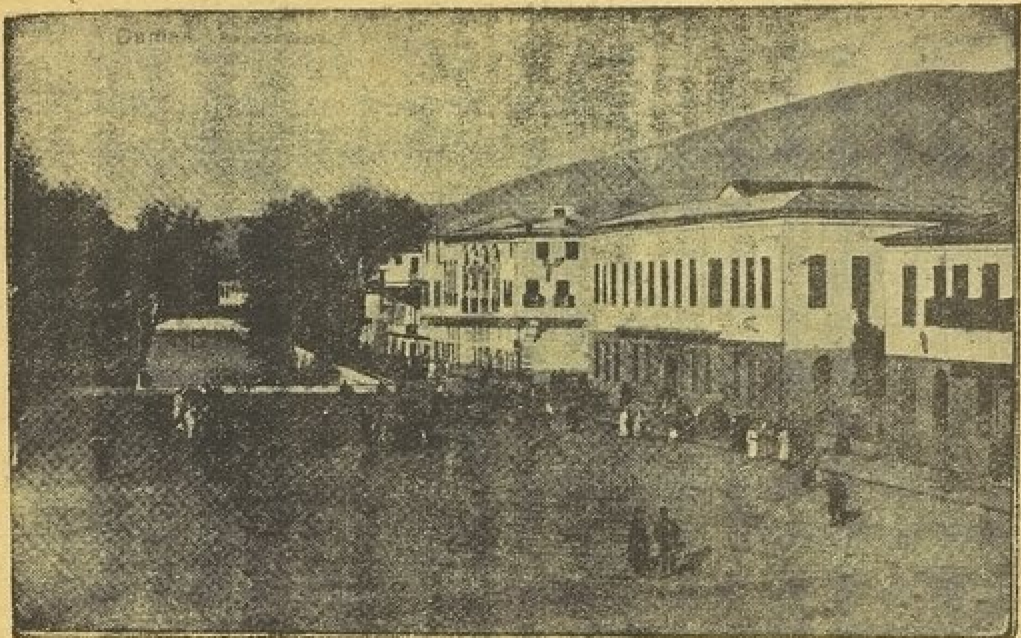
في ساحة المرجة على الطرز الجديد مما لاعهد لدمشق به وشاركه بالفندق رجل يدعى (الآغا ممنون) وفتحوا الفندق في طلعة جوزة الحدبا، ثم فتح المسيو (بيترو بو ليوفيتش) فندقاً اسماه «اوتيل اميركا» موقعه مكان اوتيل امية اليوم وهو ثاني فندق اسس في دمشق ثم فتح الخواجات خوام فندقا في محلة القنوات في الدار المعروفة بدار تمر ثم انتقلوا الى جانب اوتيل فيكتوريا وبقوا فيه الى ان بنوا اوتيل «اوريان بالاس» الحالي واليوم في دمشق اكثر من مائة فندق وفيها من الفنادق البديعة ما يضاهي أجمل فنادق العالم.

وحتى اعلان الدستور العثماني كان اصحاب الفنادق جميعهم من المسيحيين وبدأ المسلمون بفتح الفنادق منذ ذلك التاريخ فأسسوا دار الفرح ودار السرور والخديوية الى غير ذلك، اما المسيحيون فكانوا يسمون فنادقهم باسماء افرنجية وظل هـــذا الى خروج الافرنسيين من دمشق حيث قام الأهلون وطلبوا من اصحاب الفنادق تغيير الأسماء الأفرنجية بأسماء عربية فبدلوها وأصبحت كما هي معروفة به اليوم.

***

الخانات :

الخان كلمة تترية معناها ملك ورئيس يلقب بهـــا كل الأمراء الملكيين التتر وهي من القاب ملوك الفرس والسلاطين العثمانيين، ويطلق الخان عند الاتراك على الفندق وعنهم أخذه العرب. كان قديماً يبنيه الملوك على الطرق العامة لتبيت فيه القوافل وأبناء السبيل. والخان على الاكثر يبنى عادة على هيئة ساحة مربعة في داخلها صفوف من الماشي بعضهـا مبني فوق بعض فتكون من طابقين على جوانبها غرف صغيرة وفي احدى جوانبها



١ - بناية البرق والبريد ٢ - بناية العدلية السابقة ٣ - اوتيل اميركا

اسطبلات وعلى طول حيطــان الاسطبلات من الخارج (معالف) لربط الدواب في الصيف ويسمى (مصيف) وكانت هذه الخانات لحماية المسافرين من الاشقياء وقطاع الطرق لايدفعون اجراً عن المبيت فيها . هــــذا في الخانات الواقعة خارج المدن ، وتكون هذه الخانات مبنية بالحجر والجص وهي اقرب الى الحصون والقلاع منها الى الدور . يبيت المسافر في الدور الأعلا ويضع الحيوانات في الدور الأسفل .

***

خانات المدن :

خانات المدن أي التي تبنى في داخل المدينة هي على قسمين : احدهما خان التجارة والثاني خان المسافرين .

فخان المسافرين يؤجره أصحابه الى اناس مخصوصين بادارة مصلحة الفنادق فيأخذون من المسافرين أجر المبيت والأجور تختلف حسب الزمان والمكان وعلى كل كانت الاجور طفيفة يتحملها كل انسان والغرف كان منها المفروش برياش بسيطة ومنها العاري من الفرش . والغريب الذي يبيت بالخان لايكون له في البلدة التي ينزلها من يعرفه ، أما من له أدنى معرفة بأي شخص كان فانه يذهب ويحل ضيفاً في داره . ولم يزل الى الآن بعض الخانات في دمشق ينزلها أهل القرى الذين يأمون دمشق للبيع والشراء .

***

خانات التجارة :

والقسم الثاني خانات التجارة المعروفة لدى بعض الأهلين اليوم ولم تزل على حالها كما كانت قبل عدة قرون ولا بأس من ذكرها ليطلع عليها القراء .

كانت البلاد قديماً على اختلاف العصور وفي اكثر الأوقات مرتعاً

للأشقياء والزعران، والتجار غير امينين على اموالهم ولذلك اقيمت الخانات التجارية على نسق خانات الفنادق التي مر ذكرها وهي من دورين ايضاً وفي الأســـنانة خانات تجارية من ثلاثة ادوار تكون غرفها حوانيت (دكاكين) للتجار والغرف صغيرة بطبيعة الحال يستعملها التاجر مكتباً يضع فيها البضائع الثمينة خفيفة الحمل كالحرير وانواع الملابس على اختلاف



خان من خانات المسافرين الطابق العلوي لنوم المسافرين
والطابق الارضي لربط الدواب

اشكالها . أما بضائع (مال القبان) يعني الأرز والسكر والسمن والبن والشاي وامثالها فتوضع في صحن الخان ولكل خان بواب يستأجر ساحة الخان ويأخذ أجره من المشترين بحيث يدفع المشتري الى البواب عنـــد اخراج البضاعة عن كل وحدة مبلغاً طفيفاً ، مثلا في الزمن الحميدي كان

يؤخذ عن الوحدة يعنى كيس ارز أو بن أو غيره وعن (القفة) وعن «قصديرة» السمن (تنكة) متليكاً وهو ربع قرش عثماني صاغ وسيأتي بحث العملة العثمانية . ثم ارتفعت اجرة الوحدة الى نصف قرش ثم الى قرش ثم الى نصف البشلك أي قرش ونصف وفي حوالي سنة ١٩٣٠ - ١٩٣٥ ميلادي أصبح التجار البائعون يدفعون للبواب اجراً مقطوعاً وعدل عن الاخذ من الشاري ولكل بواب خان مساعدان احدهما يسمى الناطور ووظيفته حراسة الأرزاق ليلا يبيت داخل الخان وفي الصباح يسلم البواب مقابل اجر يتفق والحالة الحاضرة . أما المساعد الثاني فكان يقوم بكنس وتنظيم باحة الخان والمحافظة على نظافة الباحة دائماً مقابل اجر معين .

***

حالة التجار آنذاك :

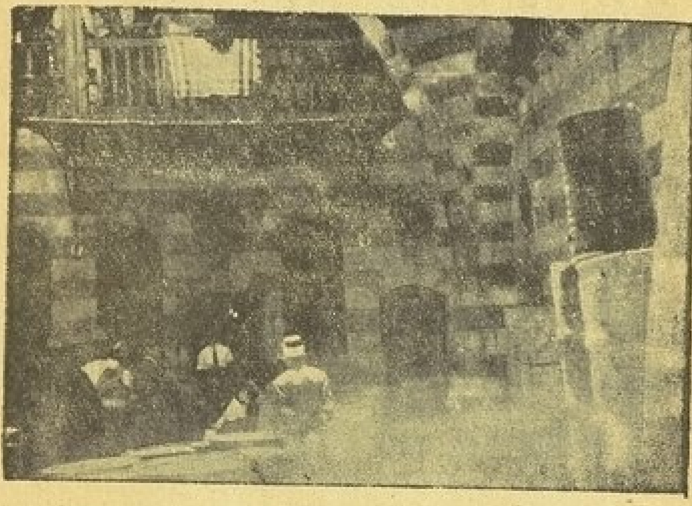
الذي اعرفه واتخطره جيداً ان بعض كبار التجار كان لهم امام ابواب غرفهم تخوت صغيرة يجلسون عليها يحيط بها بعض المقاعد من كراسي القش العالية والواطئة يجلس عليها المشترون في اوقات الفراغ تكون كمجالس سمر يتحدثون فيها مختلف الأحاديث الفكاهية ويقضون ساعات هنيئة لم نعد نرى مثلها منذ طغيان المادة على المجتمع .

***

أخلاق التجار :

كان التجار في تلك الأيام لهم حالة خاصة واكثرهم لايخرج عن عرف طبقته فلم يكن لتاجر عربة ركوب خصوصية من العربات التي كانت مختصة بطبقة الذوات من الزراع ، اما التجار الذين يضطرون للركوب فمنهم اصحاب الطواحين وتجار الحبوب فيركبون

الرهاوين(١) كما ان البعض يركبون البغال والبعض لهم عناية خاصة بالخيول الاصايل . والبعض الآخر يركبون الحمير القبرصية البيضاء وحمير الصليب والذين ليس لهم حيوان للركوب يستأجرون الحمير من سوق الخيل . والركوب في القطار كان لعموم التجار تقريباً في الدرجة الثالثة والتاجر الذي يضطر لركوب عربة الأجرة كان يواري وجهه ويستحي



احدى غرف التجار في الخانات ، وصاحبها يوزع الدراهم على الفقراء يوم الخميس والبواب واقف في منتصف الخان

بنفسه اذا رآه احد من الناس راكباً في العربة . هذا كان من التجار المتوسطين . أما كبار التجار الذين لهم املاك عظيمة ومزارع فكانوا يقتنون العربات والخيول ومنهم من يحمل رتب السلطان ويشترك بالاحتفالات

(١) الرهوان كلمة فارسية اصلها راهوان نوع من الخيول سريع السير له مشية خاصة لايمكن لبقية الخيول مسايرته في الطريق نظراً لسرعته .

الرسمية في الأعياد ومواسم الحج فيرتدون لباس « القصب ـ الصرما » ويمشون في (الألاي) وهو ماسيأتي ذكره في غير مكان من المذكرات .

وأكثر التجار كانوا يتاجرون بثلث اموالهم يضعونه رأس مال والثلث الثاني يبقونه احتياطاً خوفاً من الأزمات والثلث الثالث يشترون به املاكاً تكون لهم ذخراً يحتفظون بها للأيام السوداء ، والتاجر الذي يشتغل بثلث أو نصف ماله يكون بعيداً جداً عن الأفلاس بعكس تجار اليوم خصوصاً الشبان منهم الذين يشتغلون بأضعاف رأس مالهم فيكونون عرضة للطوارىء والأزمات . وكم رأينا تاجراً اشتغل بأضعاف رأس ماله فكُسر وجلب الشقاء أو الأفلاس لعشرات من التجار الذين يستدين منهم البضائع .

ثم من المستحيل ان يستغل تاجر صنفاً معيناً بغير انواع تجارته التي تخصص بها بعكس اليوم والاختصاص في أي عمل كان هو أس النجاح .

***

الحزّامون :

الحزّام هو الذي يحزم البضائع للتجار مقابل أجر على الوحدة ، وتسمى كل وحدة من البضائع المحزومة « فردة » وحزم البضائع صنعة قائمة بذاتها ولكل خان من الخانات التجارية حزّامون خصوصيون لايمكن ان يأتي غيرهم الى خانهم والاجرة تؤخذ على الفردة وتختلف باختلاف الزمان ، والفردة التي يحزمها الحزّام « الأسطه » أي المعلم لايمكن ان تفك في الطريق مهما كانت مسافة السفر طويلة . وكما ان لكل خان حزّامون كذلك فان لكل خان حمالين خصوصيين ايضاً لايمكن لغيرهم ان يدخل الى خانهم ، وخانات التجار محصورة في دمشق بين سوق الطويل

وهو الذي يسمى سوق مدحت باشا وبين سوق الحرير وسوق البزورية
وخانات دمشق المعروفة هي :

اسم الخان	السوق الذي فيه الخان
خان اسعد باشا	البزورية
« العامود	«
« الصدرانية	«
« الصوف	«
« الدكة	مدحت باشا
« سليمان باشا ويسمى الخاصنه	« «
« جقمق	« «
« الزيت كان قديماً للزيت واليوم للال الفاتورة	مدحت باشا
« الحرير	سوق الحرير
« الزعفرنجي	« «
« الحرمين وكانوا يسمونه سوق (الجواري)	
« الكمرك	سوق النسوان
« باب البريد	سوق باب البريد
« الزيت ولم يزل للزيت	سوق العتيق .
« الدبس	« «

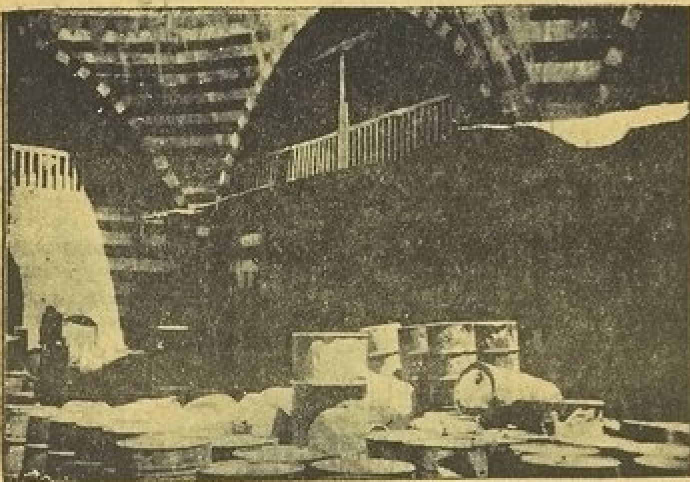
خان البطيخ اصبح كاراجاً

وقد كانت مراكز أعظم تجارة دمشق في سوق الطويل وخاناته
وهذا السوق يمتد من باب الجابية الى مأذنة الشحم(١) والحوانيت على

---

(١) سوف نبحث عن هذا السوق وتاريخ تأسيسه في الأعداد الآتية .

جانبيه وكان ضيقاً جداً وعندما تولى مدحت باشا ولاية الشام امر باخلاء السوق لتوسيعه فلم يقبل التجار فأمر بحرقه فحرقوه بالفعل وبعدة قريبة عمّره اصحابه واصبح كما هو عليه اليوم . ولم يكن في زمن تلمذتي في مكتب عنبر من تجار هذا السوق من يعرف الكتابة والقراءة الا افراداً قلائل وكان لهذا السوق بعض الكتاب من المسيحيين واليهود ومن المسلمين رجل واحد يسمى الشيخ حسن الدسوقي يحملون في زنارهم



خان من خانات التجارة ، والباحة ملأى بالبضائع

دواة من نحاس لها ذنب طويل يضعون في الذنب أقلاماً من القصب وهو اليراع يبريه الكاتب بموسى رفيعة أو « بقلم تراش » ، وهو نوع من السكاكين مخصوص لبري الاقلام وهؤلاء الكتاب يزورون التجار مرة او مرتين في الأسبوع ويكتبون لهم المبيعات في دفاترهم وكنا كلما نمر في طريقنا الى المدرسة الواقعة في حي الخراب ينادينا بعض التجار لقيد

بعض النقدات في ورقة « تسمى طيارة » يحفظونها الى ان يأتي الكاتب فتكون كمفكرة لهم وكانوا ينادون التلميذ بقولهم يا ابني الله يفتح عليك « خط لي هل خطين » فكنا نساعدهم . واذكر ان ثمن ذراع الخام من معمولات دمشق كان ثلاث « نحاسات » وهي تساوي سبع بارات ونصف من القرش ومجموع بارات القرش اربعون بارة .

***

جناب الاكرم :

والذي اذكره تماماً ان ديباجة(١) الكتاب كانت « كالا كليشة المطبوعة » لم ازل احفظها الى اليوم ، كان يكتبها جميع من كتب رسالة من العلماء الى الموظفين الى الطلاب الى الاهلين الى التجار .

وهي جناب الأكرم والمقام الافخم حميد المزايا كريم الشيم حضرة اخونا السيد... افندي المحترم دام بقاه آمين .

من بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته والسؤال عن شريف الخاطر العاطر انه ان جاز سؤالكم عنا فانا لله الحمد بالف خير وعافية الخ ... هذه الديباجة لم يزل الكثيرون يستعملونها الى اليوم في مكاتباتهم خصوصاً المزارعين من الفلاحين حتى الأفندية منهم .

***

دام بقاه :

بمناسبة هذه الديباجة وقعت حادثة لطيفة لا بأس من ذكرها هنا كان لأحد التجار عميل في القاهرة دامت معاملته مع الدمشقي مدة ثلاثين سنة وهما يتكاتبان دون ان يعرف احدهما الآخر واجتمع العميلان بعد ذلك

---

(١) ديباجة الكتاب فاتحته .

وتعارفا وبعد التعارف سأل المصري الدمشقي ارجوك ان « تفش قلبي » بتعريفي عن معنى الجملة التي تأتي منذ ثلاثين سنة في آخر اول سطر من كل كتاب ترسله لي وهي « دم بقا » معناها « ايه » قال الدمشقي هذه الجملة ليست « دم بقا » بل هي دام بقاه أي بقاء الشخص المرسل اليه الكتاب أي دام بقاؤك انت ايها العميل المحترم ونظراً للسرعة في الكتابة وتكرر الديباجة كل مرة جعلها معروفة عند الجميع وتكتب بهذا الشكل وهنا صاح المصري « الله الله ياشيخ ريحت بالي ، الله يريح بالك ». وقد هدأت فكري الذي ظل يضطرب مدة ثلاثين سنة لفهم الجملة وانا استحي ان اسألك عنها في كتاب ... ا.هـ. هـــذه حادثة واقعة رواها لي السيد ابو درويش سويد المشهور .

***

التحارير :

كان للتجار الدمشقيين بل السوريين عادة غير مستحسنة وهي ارسال التحارير الى عملائهم صحبة المسافرين وكان البعض يذهب الى محطة البرامكة ليرسل تحريراً الى عميله توفيراً لأجرة البريد التي ما كانت تزيد عن ربع الغرش (متليك)ومن له عملاء كثيرون في بلدة واحدة يضع لهم عدة تحارير مكتوبة على ورق رقيق جداً في مظروف واحد لا يزيد وزن مجموعها عن وزن كتاب واحد يسطر على ورق عادي والعميل الذي يرسل المظروف باسمه يبعث كل تحرير الى صاحبه ، او يضع التحارير بظاريف عديدة ويسلمها الى احد اصدقائه من ركاب القطار لايصالها الى اصحابها وتصور ايها القارىء ماذا يتحمل حامل هذه التحارير من المشقة لأجل ايصالها

الى أصحابها خصوصاً في بلدة غير بلدته والأنكي اذا كانت هـذه السفرة اول سفراته اليها .

***

الكتاب الخصوصيون :

كان لكبار التجار كآل القوتلي ، والحلبوني والليموني ودياب والحفار والرّباط وغيرهم كتّاب خصوصيون وقليل من اولاد التجار من كان يحسن مسك الدفاتر وقد بدأ بعضهم بتعليم اولادهم اللغة الأفرنسية في مدرسة الآباء العازاريين فكان اول من تخرجوا من هـذه المدرسة السيد مسلم السيوفي والسيد رشدي بن السيد خليل السمان رحمه الله وكانوا من ألمع شبان التجار في ذلك الزمان والسادة رشدي السكري وعبده الصبان من المسلمين ايضاً .

***

القومسيونجية(١) والمرابون

أما القومسيونجية فلم يكن بين ابناء المسلمين منهم فرد واحد بل الجميع من المسيحيين ، كذلك عكننا القول عن الصرافين والمرابين واكثرهم يهود على انه كان بعض المسلمين يقومون بذلك ايضاً وبعد الاحتلال الأفرنسي كثر عدد المسلمين حتى اصبح سوق البورصة اليوم بيدهم .

***

لباس التجار :

لباس الرأس الطربوش و « اللفة الأغباني » وكان لباسهم

---

(١) القومسيونجي هو الوسيط بين التاجر واصحاب المعامل في اوربا يتقاضى من البائع بالمائة شيئاً معلوماً « عمولة » عن المبيعات .

الخاص هو الصاية الحريرية « والساكو » ولم يزل بعضهم يلبسها ويسمى اليوم (شامي عتيق) . وكان الحرير اصلياً لانباتياً والحرير النباتي لم تعرفه بلادنا الا عقب حرب ١٩١٤ وكان الـ (ساكو) من الجوخ الانكليزي المتين يلبسه الرجل عدة سنوات مع الصاية . اما التجار الصغار وابناؤهم فكانوا يلبسون (الديمة) والجوخ العربي واذا تعدي احدهم طوره ولبس او لبَّس ابنه لباس طبقة أعلى من طبقته يكون عرضة للتحقير والتهكم . وكثيراً ماسمعنا افندي المحلة قد جلب احد التجار الأصناف ووبخه على تعديه طوره بارتداء لباس أعلى من لباس طبقته وأجبره على قلعه والرجوع الى لباسه الأصلي وعلى هذا النحو كانت جميع الطبقات سعيدة في حياتها مسرورة في اجتماعاتها فرحة في معيشتها بعكس اليوم حيث نسمع الشكوى من كل جانب ومن كل طبقة والسبب هو عدم معرفة الانسان حده والوقوف عنده وانا نرى اليوم افقر الفقراء يريد ان يقلد في لباسه ومعيشته ابن التاجر الكبير وامرأة الصانع تريد ان تجاري امرأة الوزير وبذا ظهر عدم الرضا بين الناس وارتفعت الشكوى لطف الله بعباده .

***

امانة التجار :

كانت اكثرية التجار المطلقة امينة على مايستودعها الناس صادقة في معاملاتها والتاجر كان يحافظ على كلمته فمن باع لايرجع ومن اشترى لايقلب مهما وقع هناك من الخسائر وكان البيع والشراء في الحالات العادية وبالصفقات المتوسطة والصغيرة بالقول فقط ولم تعرف معاملات الكتابة في البيع والشراء الا بالصفقات الكبيرة .

ومنــــذ عهد قريب قال لي احد اصدقائي واشار بيده الى سوق

مدحت باشا قبل خمسين سنة من هذا التاريخ لم يكن في هذا السوق الا تاجر واحد قليل الامانة يعرفه التجار ويتحاشون معاملته فقلت واليوم فأخذ بطرف ردائه ونفضه قائلا الله اعلم .

اما الامانة التي ذكرتها آنفاً فكانت عامة وكم تاجر ارسل مع عميل له الوف الليرات الذهبية دون وصل وكان العميل يغيب الأشهر والسنين ويعود بالمال مع الربح او بالبضائع والتجارة دون ان يمضي ورقة واحدة واليوم من شاء فليمر على كاتب العدل ويطلع على المعاملات التي تجري بين التجار فيعرف منها الفرق بين الأمس واليوم .

***

الامانات الصغيرة :

من عجائب تلك الأيام ان الناس كانوا يأتمنون بعضهم عن غير معرفة فمتى قيل هـــذا تاجر فرضت فيه الأمانة ولذلك كان البعض يرسل امانة الى عميله في بيروت او حلب او اي بلدة مع راكب لايعرفه وكثيراً ماتكون الامانة مئات من الليرات العثمانية. يكون الراكب جالساً في عربة القطار قبل تحركه من المحطة فيأتيه احدهم راجياً منه ايصال امانة صرة دراهم يعطيه اياها دون عد فيتحمل هذا المسكين همها الى ان يوصلها الى صاحبها وقد حدث حادث طريف لابأس من ذكره هنا وهو انه

***

طالب افندي الحلبوني :

كان في دمشق احد كبار التجار من اسرة الحلبوني الكريمة وهي

اسرة من اشهر اسر دمشق ورجالها كانوا من اكبر تجارها سافر كبيرها الى الآستانة في تجارة واعطاه احد التجـــار امانة الى عميل له صرة فيها مائتا ليرة عثمانية فاخذ الصرة ولما وصل الى الآستانة دفعهـــا الى المرسلة اليه فعدهــــا واذا بها مائتا ليرة فعاد الى طـاب افندي وقال له ان الامانة ناقصة مائة ليرة لان عميلي يقول في كتابه انها ثلاثمائة فقال الحلبوني نعم احتجت اليها فتصرفت بها في الطريق واليك هي واعطاه مائة ليرة وبعد بضعة ايام عاد الرجل الى طالب افندي معتذراً واعاد المائة ليرة وقال كان عميلي كتب لي انه ارسل المبلغ ثلاثمائة ليرة ولكنه عاد فاخبرني انه لم يتمكن من ارساله باجمعه فارسل مائتي ليرة فقط ولذلك فاني اعتذر عن هذا الخطأ ولكن ارجوك ان تعرفني ماهو سبب دفعك المبلغ من جيبك قال الحلبوني لو قلت لك ان المبلغ مائتان فقط لما قنعت وكنت نشرت الخبر بين الناس والى ان يأتي الخبر الصحيح يكون التجار سمعوا بهذه الحادثة ومن الصعب اقناعهم ببراءة ذمتي بعد ذلك مهما كان الأمر ولذا فاني احببت ان اشتري سمعتي بهذا المبلغ . هذه حادثة واقعة فتأمل اخلاق التجار آنذاك رحمهم الله .

***

محكمة التجارة :

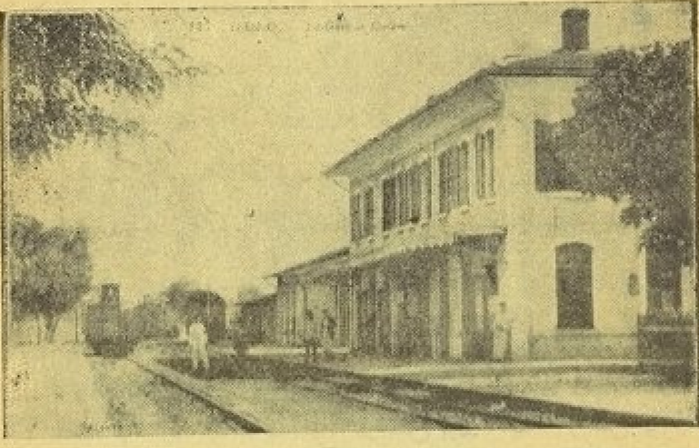
من عجائب الدهر ان الحكومة العثمانية أسست محكمة تجارة في دمشق وبقيت ثلاث سنوات مفتحة الأبواب لم يدخلها شاك فتأمل .

السفر من دمشق

قلت اني ذهبت الى « اوتيل فيكتوريا » وقضيت تلك الليلة فيه وصحوت في الساعة الرابعة وارتديت ملابسي بسرعة وطرق النذل « الكرسون » الباب ليوقظني حسب طلبي في المساء فوجدني جاهزاً فأحضرلي « عربة » اجرة ونقل امتعتي اليها وكان الثلج يتساقط والبرد شديداً والشوارع مظلمة وليس فيها مصباح مضاء وكان النور الكهربائي مقطوعاً من التكية كما فهمت من شرطي المحطة بعد وصولي وكانت شوارع دمشق في تلك الأيام لا تفرق عن شوارع القرى ولم تكن البلدية تعتني الا بالشوارع التي تحيط بدائرة الحكومة ، اما بقية المحلات خصوصاً النائية كمحلة الميدان وقبر عاتكة وامثالها فانها كانت مهملة يخجل الانسان ان يمر فيها من الوحول . وبعد ساعة من خروجنا وصلنا الى محطة القدم ويعلم الله ماذا لقيت والجوذي من البرد في هذه المدة القليلة وكان وصولنا قبل وقت حركة القطار بمدة فوجدت الكثيرين من الركاب ينتظرون القطار ولم تكن المحطة بعد مُعبَّدة الطرقات وليس فيها رواق يمنع الأمطار عن المنتظرين وبقينا في المحطة والمظلات في ايدينا تحمينا من الثلوج . وفي الساعة السادسة تماماً تحرك القطار الى حيفا وسبب سفري الى حيفا ان طريق بيروت كان مسدوداً من الثلوج وبقي اربعين يوماً مسدوداً بين بيروت ودمشق .

سار القطار بنا وكدنا نموت من البرد لأن احد الواح الزجاج مكسور وليس في العربات مدافيء عامة « شوفاج سنترال » وكانت عربات الركوب قليلة والركاب كثيرين ولم اتمكن من ايجاد محل وقد تحابانا على

النافذة المكسورة وسددناها ببعض الأمتعة حتى منعنا عنا دخول الهواء المثلوج والغريب ان ادارة السكة كانت بأيدي الحكومة لأن خط حيفا والمدينة هو خط حكومي (مؤمم) فاذا شكونا امرنا لايسمع احد شكوانا لأن ادارة الخط ادارة حكومية وتحملنا برادة هذه السفرة الى حيفا بكل نفس ذائقة الموت والخط الحجازي مصلحة خاصة سيأتي لها بحث



محطة القدم للخط الحجازي يوم سفري الى اوربا

خاص فيما بعد وكانت مناظر الثلوج المتساقطة على الحقول والجبال رائعة جداً ولما وصلنا الى جسر المقارن انقطع الثلج وفي المساء وصلنا الى مدينة حيفا .

***

حيفا :

بلدة جميلة من ألطف البلاد العثمانية الساحلية ومناظرها

بديعة وجبل الكرمل يسلب اللب وهي بلدة زراعية تجارية ولكنها كانت متأخرة كبقية البلاد العثمانية وشوارعها ضيقة فيها من الوحول مايشوه جمالها ويزيل بهجتها وللأسف لم أجد فيها فندقاً الا فندق « يعقوب ليفي » ولم تكن الحالة بيننا وبين اليهود متوترة وكنا نعاملهم كبقية العناصر العثمانية وبعد ان استرحت قليلا خرجت الى السوق وتناولت طعامي في دكان شوا ، دكان قذرة على (طاولة) من الخشب (مزفته) من الدهن الذي عليها وجعلت ادور في البلدة لقضاء السهرة فلم اجـد مقهى لائقاً بالمسافرين ووجدت مسرحاً يضربون على بابه بآلات موسيقية عسكرية « كلارنيت وبوكلي وطبل وترامبت » فدخلت مع الداخلين ودفعت الاجرة نصف بشلك وكان اللاعبون جوقة موسيقية تمثيلية مصرية ولكن الجميع كانوا من الرجال وبعد ان اسمعونا شيئاً من الغناء خرجت راقصة ممشوقة القوام واجادت الرقص واحسنته أيما احسان مما استلفت نظر الجميع وبعد نزول الستارة خرجت تلم الاكرامية (البالصة) فصار الناس يداعبونها واذا بها شاب صوته عريض يقلد النساء بالرقص على رأسه شعر مستعار ، وقد فهمت ان ظهور الراقصات على المسرح لايجوز وهو ممنوع بأمر القائمقام ومسموح للرجال تقليد النساء وكان هذا في البلاد العثمانية معروفاً مشهوراً والأتراك يسمون الرجل الذي يمثل دور البنات « زينه » ثم لعب الممثلون دوراً هزلياً ختموا فيه الليلة وعـدت الى الفندق ولما صحوت في الصباح الباكر ذهبت اولاً الى الميناء وسألت عن البواخر التي تسافر ذلك اليوم الى الاسكندرية فأخبروني ان احدى بواخر الشركة الخديوية المسماة « قصير » ستصل العصر الى حيفا وتقلع منها في الساعة الرابعة عربية ليلا أي في الساعة العاشرة زوالية مساء فعدت الى

البلد وأكملت ماينقصني من الحوائج خصوصاً أدوات طبخ الطعام التي حملتها من بلادي الى اوربا وعادت معي الى دمشق دون ان احتاج اليها الا في طريقنا من فينا الى الآستانة عند رجوعنا كما سيجيء ذلك فيما بعد.

ثم ذكرت لأحدهم مالاقيت الأمس من العناء في تناول طعام العشاء فقال أضلحك الله ان في البلدة مطعماً نفيساً يسمى «مطعم الكازار» وهو مطعم نظيف في موقع جميل يطل على البحر حسن الرياش وخدامه آية في النظافة مما غيّر فكري في حيفا فذهبت الى الكازار ورأيته حقيقة كما قال الرجل فتناولت الطعام وخرجت افتش عن محل (عبد الله افندي مخلص) وأنا ألوم نفسي لتسرعي بالحكم على مطاعم حيفا بالأمس وقلت على المرء ان لايحكم قبل ان يحقق (وعبد الله مخلص) من اصدقاء محمد بك كرد علي الذين يعتمد عليهم كل الاعتماد وهو من أدباء العرب وعلمائهم وكنت احمل اليه كتاباً من صديقه كرد علي يوصيه بي خيراً وارشدوني اليه في الميناء وكان مديراً «لعنبر» مستودع السكة الحجازية فلما قرأ الكتاب رحب بي ترحيباً قلبيا وأجلسني الى جانبه واحضر لي القهوة واخبرته خبري فجعل



الاستاذ عبد الله افندي مخلص

يؤانسني ويشجعني على المضي في طريق العلم واستعلم عن قدوم الباخرة «الفُصيره» وعرف انها ستصل العصر فأرسل بصحبتي احد الكتاب المدعو رضا افندي وسرنا الى «الآجنته الخديوية» مركز فرع الشركة في حيفا لاقطع تذكرة سفر فتمنع الموظف الانكليزي عن اعطائي التذكرة لأني من دمشق وكانت الحكومة المصرية لاتقبل دخول احد الشاميين الى القطر المصري خوفاً من ان يكون الشامي آتياً من الحجاز وكانت بلاد الحجاز موبوءة في ذلك العام وكان الخوف من دخول «جراثيم الكوليرا» الى القطر وعدت الى عبد الله افندي مخلص فقام وغاب مدة قليلة وعاد ومعه اوراق رسمية تثبت اني من موظفي الخط الحجازي ومن الذين لم يذهبوا الى الحجاز في هذه السنة .

وبناء على هذه الأوراق اخذت تذكرة سفر مع خصم ٤٠٪ لأني من مستخدمي سكة الحجاز .

***

سامي باشا مردم بك :



سامي باشا مردم بك

وبينما انا في الميناء بين «العنبر» و«الآجنته» واذ بسامي باشا مردم بك وهو من وجوه دمشق مع ابن عمه راشد باشا وبعض الدمشقيين مثل صادق افندي جبري والدكتور سليم افندي صبري وغيرهم من التجار الذين فاتتني اسماؤهم عرفوا بسفري الى اوربا ولا ادري من اين فهموا اني ذاهب دون اذن والدي فتجمهروا علي وجعلوا ينصحونني بالعودة لأخذ اذن والدي

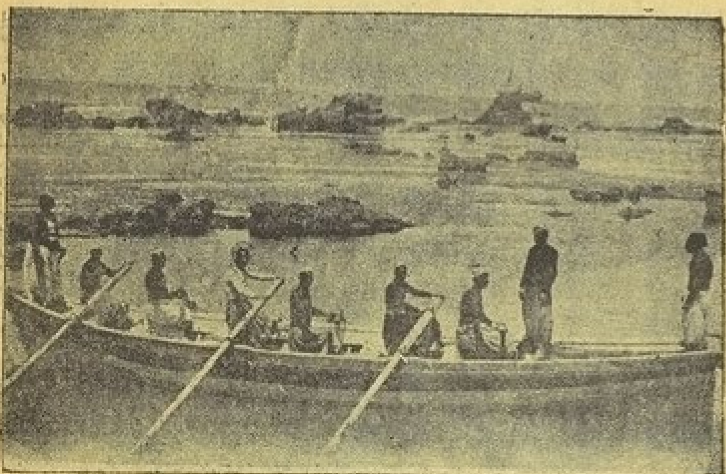
وبعدها اسافر واصروا علي بذلك ولكني لم «آخذ» الشيطان على رأيهم وبقيت مصراً على السفر وهكذا كان .

***

في طريقنا الى الباخرة (قصير) :

في الساعة الرابعة وصلت الباخرة وألقت مراسيها خارج الميناء ونزل الركاب بالرغم عن هياج البحر . وكان بين الركاب بعض الدمشقيين الذين ركبوا من بيروت اخبروني ان والدي وصل اليها عائداً من الاستانه . (اسطنبول) وان الطريق بين دمشق وبيروت سدته الثلوج وبينما نحن في هذا الحديث واذ بقارب عليه علم يضطرب في البحر وتتلاعب به الامواج ينقلب بمن فيه في منتصف الطريق بين الميناء والباخرة وبادر الملاحون لانقاذ الغرقى فانقذوهم جميعاً وكان هذا القارب قارب البريد الروسي والعلم الذي كان يرفعه هو العلم الروسي ، جرى هذا امام الناس فاحجم الكثيرون عن السفر خوفاً من هياج البحر كما انهم لم يتمكنوا من تحميل الحمضيات او صناديق التجارة لهياج البحر وجاء عبد الله افندي مخاص الى الميناء وبواسطته تمكنت من ايجاد ملاحين يوصلونني الى الباخرة وكانت اجرة الراكب في مثل هذه الاحوال ليرة افرنسية ذهبية وملاحو حيفا مشهورون بهذه الصنعة يفوقون البيروتيين واليافاويين بالمهارة وشدة البأس والقوة وعندما انزلنا الامتعة الى القارب وقفت اودع الدمشقيين وقد اعاد الجميع عليّ الكرة يرجونني تأخير سفري الى ان يهدأ البحر فلم اقبل خوفاً من ان يحضر احد من دمشق او يأتي تلغراف الى الحكومة بلزوم منعي عن السفر فيتأخر سفري وقلت : لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا . وودعت الجماعة وركبت القارب وكان فيه سبعة ملاحين اكثرهم رؤساء

وأحد الرؤســـاء نادى ابنه فجاء وركب في المؤخرة لأدارة الدفة وسار بنا القارب . قبل غروب الشمس وجميع الناس الواقفين على رصيف الميناء جعلوا يدعون الى الله . وكلما جـــذّف الملاحون وتقدموا خمسة امتار يأتي الموج ويردنا اربعة امتار الى الوراء وعلى الرغم من اني لم اركب البحر في عمري لم اخف ولم يصبني الدوّار وكنت اشجّع المـــلاحين



احد القوارب التي كانت تنقل الركاب من الميناء الى البواخر
قبل الحرب العامة الاولى

واحدثهم وهم يضحكون كأنهم ذاهبون الى منتزه وقد بح صوتي من شدة الصياح لان هدير الامواج كان يذهب بالصوت ادراج الرياح ودخلت العتمة وكثر الضباب وبعدنا عن البلدة ولم يعد يظهر لنا الا نور مصابيحها وكانت انوار الباخرة تظهر لنا من بعد وبينما نحن سائرون باتجاه الباخرة واذا بالقارب يتحول سيره وينحرف قليلا عن اتجاهه فنبهت ابن الريس

الى ذلك فقال لاتخف نحن ذاهبون الى مستودع هنا في البحر لنأخذ بعض الملاحين من هناك الى البلدة وبدلا من ان نأخذهم في الرجعة نأخذهم الآن ليساعدونا بالتجذيف فقنعت وصرنا نمر بقوارب مربوطة بالصخور فسألت عنها فقالوا ان الملاحين يربطون قواربهم قرب مستودع الكاس او الفحم (لم اعد اذكر) خوفاً عليها من الاصطدام بالصخور اذا هم ابقوها في الشاطيء لان ميناء حيفا كانت تخيف البحارة وليست مثل ميناء الاسكندرية أو بور سعيد مثلا .

وبقينا نسير مدة غير قليلة بين الصخور الى ان وصلنا الى المستودع وهو قائم في البحر على صخور مرتفعة عدة امتار عن سطح البحر واصطدم القارب بجانب المستودع فجعل ابن الريس يشتم بعبارات بذيئة لم اسمع مثلها في عمري وخاف الجميع من الغرق وبعد قليل سمعنا لغطاً فنادى احد الملاحين فاجابوه فتقدمنا بحذر من محلهم والبحارة يتحاشون اصطدام القارب بصخرة او بجانب المستودع الى ان وصلنا الى المستودع فنزل سبعة اشخاص الى القارب وجعل يجذف كل اثنين بمجذاف وعدنا الى البحر واتجهنا نحو الباخرة ولولا اتساع القارب ومهارة الملاحين لما وصلنا سالمين ولم نكد نقترب من الباخرة حتى سمعنا سلاسل السلم وهو يرتفع فجعلوا يصيحون باعلى اصواتهم على الطائفة الذين عرفوا بوصولنا فاعادوا السلم وصعدت الى الباخرة واصعدوا الحقائب والاغراض واردت اعطاءهم الأجرة فأبوا اكراماً لعبد الله افندي ولأني ذاهب في طلب العلم فشكرتهم ونقدت الذي اصعد حقائبي ريالاً مجيدياً بخشيشاً فتمنع ايضاً ولكني اقسمت فأخذه وودعتهم وعادوا بالسلامة الى حيفا .

ورؤساء الملاحين الذين رافقوني في تلك الليلة هم السادة : الريس محمود

رندو ، الريس احمد حسن رندو ، السيد اسعد ابو زيد ، السيد احمد ابو زيد ، السيد حسن الحاج ابراهيم ، السيد محمد الحاج ابراهيم فلهم الشكر اولاً وآخراً على هذا المعروف الذي يجب ان يسطر لهم في هذه المذكرات ورحم الله المتنبي حيث يقول :

لاخيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق ان لم تسعد الحال

فالى الاحياء منهم شكري والى من قضى منهم الرحمة والغفران .

في الساعة السابعة والنصف زوالية من ذلك اليوم اقلعت بنا الباخرة من حيفا وهي باخرة صغيرة ليس فيها شيء من الحمولة وما كدنا نبحر حتى اشتد البحر وهاج وجعل يلعب بالباخرة كما تلعب الريح بالريشة وقد تحمل الركاب حتى بعض البحارة منهم آلاماً شديدة من الدوار وذهب كل راكب الى فراشه وذهبت الى « قمرتي » (١) ونمت الى الصباح نوماً متقطعاً حيث صحوت في الساعة السابعة من يوم الاثنين ٢٠ شباط ١٩١١ وصعدت الى الظهر فوجدت الباخرة متجهة الى يافاوالمدينة قريبة منا وبعد ساعة تقريباً ربطت الباخرة بعيداً عن الميناء وكان البحر ساكنا وقال الملاحون ان البحر منذ عشرين يوماً لم يسكن ولم تقف باخرة في يافا لشدة هياجه وهذه اول باخرة تقف منذ عشرين يوماً فحمدنا الله واقبل الركاب والتجار واشتغل الملاحون بنقل صناديق البرتقال وما زالو يعبئون الباخرة الى ان امتلأت عنابرها وامتلأ الظهر حتى وضعوا صناديق البرتقال في جوانب الممرات مما ساعد على تحمل الباخرة لهياج البحر لأنها لما كانت فارغة كانت العواصف تلعب بها اما بعد الحمولة فكان البحر بالرغم عن هياجه اقل تأثيراً بعدا عبثها .

---

(١) القمرة ، الغرفة في البواخر تسمى قمرة

مدينة يافا :

مما يذكر ان الباعة المتجولين صعدوا من القوارب الى الباخرة يحملون بضائع مختلفة اكثرهـا من مصنوعات القدس وضواحيها وهي من خشب محفور واصداف مرصوفة ومسابح وصلبان وغير ذلك من المصنوعات التي يعدها متدينو المسيحيين من الآثار المقدسة وركب في الباخرة كثيرون من زوار القدس من الاوربيين الذين كانوا منقطعين في القدس منذ عشرين يوما للنوء الشديد الذي حصل في ذلك العام وفي الساعة التاسعة زواليه (١) اقلعت بنا الباخرة من يافا . وفي الساعة التاسعة من صباح الثلاثاء الواقع في ٢١/ شباط ١٩١١ ظهرت لنا مدينة بور سعيد المصرية.

***

مدينة بور سعيد :

في الساعة الواحدة بعـــد الظهر ربطت الباخرة في الميناء ونزل اكثر الركاب رأسا الى الرصيف دون استعمال القوارب ونزلت مع رفيق تعرفت عليه في الباخرة يدعى « كرياكو بك » وهو احد موظفي وزارة الزراعة في الاستانة ، اردنا التفرج على البلدة فحصلنا على رخصة من موظف جالس خلف منضدة من خشب وامامه حاجز من الخشب « كالدرابزين » اخذنا اليه حمال في صدره قطعة نحاس محفور فيها رقمه وكفلنا عند هذا الموظف باننا سنعود بعد الفرجة على البلدة وبعد ان تثبت الموظف من اننا لم نكن في الحجاز سمح لنا بالخروج فخرجنا من باب يحرسه رجل يسمونه (عسكري(٢)) اعطيته ورقة (العتاقة) التي اخذناها فسمح لنا بالمرور فخرجنا

---

(١) كان اهل دمشق وجميع العثمانيين يستعملون الساعات العربية في معرفة اوقاتهم وقد اتبعت الوقت على الساعة الزوالية منذ ركوبي من حيفا فتنبه .

(٢) العسكر كلمة كان يستعملهـــا الاتراك للجنود فاذا قلت عسكر يعني الجيش والعسكري مفردها الجندي والمصريون لم يزالوا يستعملونها الى اليوم بهذا المعنى .

ودرنا في هذه البلدة اللطيفة التي اثرت مناظرها بي تأثيراً كبيرا لاني لم أكن خرجت قبلا من دمشق وجعلت اقارن بين نظافتها ووساخة دمشق وقلت ليت ربي يرزق دمشق رئيسا لبلديتها فيجعلها « كبور سعيد » .

ووصلنا في سيرنا الى دائرة البريد وكانت تسمى « دائرة البوسطة » فكتبت تحارير الى والدي واصدقائي ووضعتها في صندوق البريد واتممنا الفسحة وتفرجنا على الحدائق والشوارع .

جلسنا في احد المقاهي نتناول كاساً من الشاي واذ بجوقة موسيقية مؤلفة من نساء ورجال دخلت المقهى وجعلت تعزف القطع الموسيقية الأفرنجية مما لم يكن لي عهد به ودارت احدى النساء وبيدها صينية على الجالسين تستجدي منهم الأجرة ويسمونها « البلصة او البالصة » وانتقلت الجوقة الى مقهى آخر وعدنا الى الباخرة واشتريت في طريقي عصا من جلد داخلها قضيب حديدي وهي ثقيلة جداً افادتني في الرحلة كثيراً كما سيجيء ومن الضروري لكل انسان ان يحمل بيده عصا قوية والعصا نصف سلاح .

وصلنا الباخرة وجاءنا الكفيل يطلب اجرته فنقده كل واحد منـــا فرنكا وذهب شاكراً . بخلاف دليل اسكندرية الذي سيأتي خبره قريباً .

***

حركة الباخرة :

أقلعت الباخرة في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين وسارت ببطء وانتشر الركاب افراداً وجماعات في الماشي وعلى السطح منهم من راح يتمشى ومنهم من جلس يتمتع بالمناظر ومنهم من أخذ يغني دمدمة او يصفر والباخرة تبتعد ثم اسرعت بالسير وبدأ الليل يخيم ودخل الركاب

متتابعين الى صالونات الباخرة منهم من يطالع ومنهم من يلعب الورق او الشطرنج . وقضينا سهرة لطيفة وقد اجتمع فريق كبير في احدى زوايا صالون الطبقة الثانية وجعلوا يتحدثون وكل من عنده حكاية لطيفة او طرفة طريفة يلقيها على المسافرين وهم يضحكون ولا شك ان السفر اكبر مدرسة للانسان ورقي البشر يظهر في مثل هـذه السفرات وكلما طالت السفرة ظهرت الأخلاق على حقيقتها .

والمسافر لابد له من ان يجتمع ويتعرف الى اناس مختلفين منهم اللطيف ومنهم الثقيل وويل لمن يصطحب ثقيلا في سفره ، لاشك في انه (بعدم عافيته معه) . ووصيتي لكل من اراد السفر ان يختار الرفيق قبل الطريق خصوصاً في السفرات البعيدة والرفيق ضروري في مثل هذه السفرات لان الانسان معرض للحوادث والسعيد من يتمكن من ايجاد الرفيق الموافق وكثرة الرفقاء في اي سفر بلاء خصوصاً اذا كانت مشاربهم مختلفة او ان بينهم من صحته (منحرفة) .

***

الاسكندرية :

في الساعة السادسة من صباح الاربعاء في ٢٤ شباط ٩١١ ، ايقظني « الكرسون » معلنا وصولنا الى الاسكندرية ، فاسرعت بجمع حوائجي ووضعها في الحقائب وأفطرت ثم وقفت على سطح الباخرة اتمتع بمناظر المرفأ والسفن والحركة في هذا المرفأ الجميل ورست الباخرة جانب الرصيف في الساعة التاسعة ونزل الركاب ولما صرنا على البر سألت عن البواخر المسافرة الى مرسيليا واوقاتها فاعلموني ان باخرة المانية ستقوم مسـاء اليوم الى مرسيليا اسمها « البرنس هنري » فسررت وذهبت قبل ان اخرج امتعتي

من البـــاخرة « القـُصير » الى « الآجنطة » الالمانية وقطعت تذكرة ونقلت امتعتي من باخرة الى باخرة بسرعة ولما كان لدينا وقت طويل للسفر طلبت من مـــدير الميناء اذنا بالسماح لي بالخروج الى الاسكندرية للتمتع بمناظرها والتفرج عليها فسمح لي وخرج معي نيقولا كرياكو بك وتقدم منا دليل أحب أن يدلنا على البلدة فأبى رفيقي كرياكو بك ولكني أصررت وأخذنا الدليل وسرنا في البلدة بعدأن كفلنا الدليل لدى الموظف في المرفأ على أن يعود بنا قبل أن تقلع الباخرة ، ولم يسمح لنا الموظف بالخروج الا بعدان اطـّلع على أوراقنا والمستندات التي تشعر بأننا سنغادر الاسكندرية أنا الى مرسيليا وكرياكو الى الآستانة .

وعلى هذا خرجنا نتمشى في الشوارع واستأجرنا عربة ركبناها ودرنا في البلدة مقدار ساعة وطلب كرياكو مني ان نتمشى لأن السائح يتمكن في السير من رؤية البلدة اكثر من الراكب فأجبته الى طلبه وقد لاحظت كثرة الباعة المتجولون يحملون في ايديهم الحوائج الخفيفة كالاقلام والامشاط وغير ذلك واذا عرفوا ان المشتري غير مصري يطلبون ثمن الحاجة اضعافاً مضاعفة ومهما انقص المشتري من الثمن يجد الحاجة باهظـة وقد طلب مني احدهم سبعون غرشاً ثمن قلم حبر فرفضت وما زال ينزل من الثمن حتى اخذته بعشرة قروش فتأمل .

والفقراء كثر خصوصاً الاولاد كانوا يسيرون حفاة عراة الرؤوس يلحقون السياح يطلبون الصدقة بالحاح بصورة بشعة كما هو الحال في بلاد الشرق.

بلدة الاسكندرية بلدة جميلة لا يمكن وصفهـــا بمجرد مرور طريق ولكن يمكنني ان اقول انها ثغر جميل (باسم) فيها حركة عظيمة . اشتريت



منظر من مناظر ثغر الأسكندرية الباسم

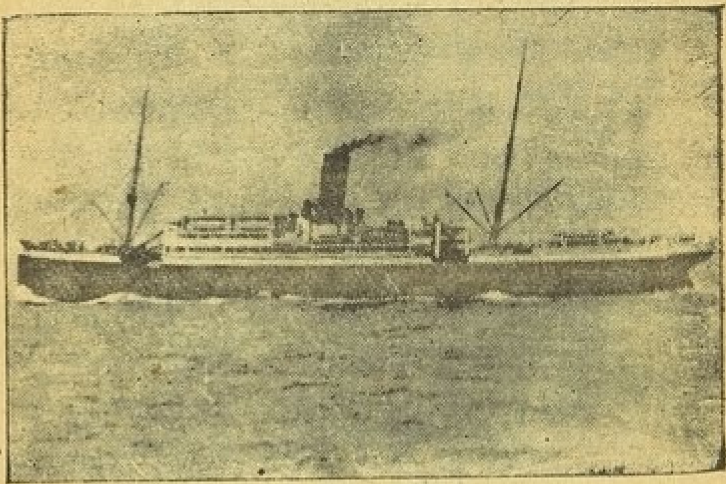
منها بعض الكتب وبينما نحن في الطريق مررنا بمصرف « كريديليونة » فقال كرياكو بك ان لي اموالاً مودوعة في البنك مرادي سحب شيء منها ودخلنا المصرف وطلب سحب المال وطلبوا منه اشخاصاً يعرّفونه فقال للدليل تعال معي لنحضر لهم من يُعرِّف بي وخرجنا من المصرف وجعل كرياكو يسير بنا من محل لآخر والدليل يسأله الى أين انت سائر فيقول الحق . الى ان وصلنا الى امام بناية عظيمة فقال له وصلنا إنتظروني هنا لأحضر احد اصدقائي ودخل من الباب « وياايدكم » وخرج من باب آخر وانتظرنا مقدار ربع ساعة والبيك لم يحضر ودخلنا نفتش ولكن « اين فطيم بسوق الغزل » وبعد ان درنا جميع الوكالة غرفة غرفة ولم نجد له أثراً عرفنا انه محتال وجد وسيلة للهرب « ففركها » ولا تسل عن الدليل الكفيل وما اصابه من الانزعاج فلطم على وجهه حتى كاد ان يدمي خدوده وجعل يصيح وخرج الزبد من فيه وأخذ بتلابيبي وقال وهو يبكي وينوح انت المسؤول عن رفيقك : (ياالله وياي َللقسم) واجتمع حولنا الناس وما أقنعته بلزوم السير الى المرفأ لاخبار مديره بالأمر الا بألف جهد جهيد ولما وصلنا أعاد الرواية (وزاد بالزعبرة) امام الموظف الذي كفلنا عنده وجعل ينادي ياعسكري وجاء شرطي أسمر طويل فشكاني اليه وأخبرته الخبر وقلت مادام هذا الدليل يعرف البلدة كان عليه ان يدخل مع الرجل طالما يعرف ان هذه البناية لها ابواب عديدة وكرياكو رومي وأنا عربي ولا رابطة بيننا غير معرفة الطريق فما ذنبي اذا هرب منه وهنا تداخل اولاد الحلال وقالوا (ارضيه) قلت بماذا أرضيه فقال أحدهم (بكم جنيه) وهنا بدأت الرواية تتجدد وزاد الرجل بالصراخ وبالرغم من أني قبلت أن أدفع له نصف (بينتو) أي نصف ليرة افرنسية ذهب فانه لم

يقبل الآن نذهب الى القسم فقلت يالله الى القسم أيوجد هناك قطع راس ، ولما عرف مني الجد تراجع وقبل النصف (ينتو) وهو يشتم كرياكو بكل مسبة بذيئة ، وبعدان انتهت هذه المشكلة صعدت الى الباخرة الجديدة.

***

(الوابور البرنس هنري) :

هـــذه الباخرة من بواخر شركة « نورد دوتشر لويد بريمن



الباخرة البرنس هنري

Nord deutsecher lioyd Brimn واسمها البرنس هنري Prinz henrich «وفيها «٣٤٣» قمرة(١) لعموم الدرجات «بريمو» اولى وعدد قمراتها «٢٨٠» و «سيكوندو» ثانية وعدد قمراتها « ٤٥ » وثالثة وعدد قمراتها «١٨»

---

(١) القمرة كلمة اصطلح عليها المسافرون للغرفة المخصصة للنوم في البواخر ولا ادري مصدرها .

والأسرّة في القمرات ففي الاولى سرير اوسريران وفي بعضها ثلاثة حسب طلب الراكب ، واسرة الدرجة الثانية اربعة وستة والثالثة أسرتها ستة أو ثمانية والأسرة في القمرتين الثانية والثالثة فوق بعضها ، أما في الأولى ففي كل قمرة من ٢ الى ٣ اسرة وجميع القمرات فيها مغاسل تامة وكلها نظيفة وغير هذه الدرجات يوجد السطح ويسمونه ظهر الباخرة والسفر عليه في الصيف لطيف جداً اما في الشتاء فهو مزعج لما يصيب الراكب من تبدل الأنواء من الدوّار .

***

صالونات الباخرة وغرف الطعام :

لهذه الباخرة في كل درجة صالون للجلوس يختلف باختلاف الدرجات واحسنها « البرعو » فيه مناضد مختلفة مفروش برياش ثمينة وفيه آلة الموسيقا « بيانو » كبيرة يعزف عليها من شاء من الركاب ويقدم في الصالونات جميع انواع الألعاب كالورق والشطرنج والداما والدومينو وغيرها من الالعاب المخصصة للصالونات من البريتش للبوكر الى غير ذلك .

وغرف الطعام نظيفة والدرجة الأولى أوانيها جميلة ثمينة وعلى كل وحدة من ادوات المائدة علامة الباخرة متخذة شعاراً للأواني وجميع أدوات الباخرة والشعار هو حرفا (ب.هـ.P.H.) وهما اول حروف البرنس هنري .

وكان لكل درجة تماشي خاصة مع ملاعب على سطح الباخرة وفي الماشي يوضع للركاب كراسي بحرية تفتح وتغلق وتمدد حسب طلب الراكب منها مايحضره المسافر صحبته ومنها يعطى من قبل ادارة الباخرة مقابل فرنكين اجرة الكرسي من الاسكندرية الى مرسيليا والفرنك معادل

ربع ريال عثماني وعلى جانب كل كرسي اطار صغير ثابت من النحاس يوضع فيه بطاقة (كارت) يحمل اسم مستأجره أو صاحبه .

***

ملاعب الباخرة :

يوجد على الظهر ملاعب للدرجات الثلاث فيها أنواع من اللعب منها لعبة فاتني اسمها لم اقيده بمفكرتي وهي عبارة عن مربعات مخططة في الأرض واقراص من خشب رقيقة مبسطة بشكل دائرة تضرب بعصاوات في اسفلها قطعة من خشب مبسطة بقـــدر الكف فتدفع الأقراص الى المربعات و « الشاطر » من اللاعبين لا يمكن خصمه من وضع اقراصه في المربعات بل يسعى بضرب اقراصه لأخراج اقراص اللاعب الآخر وقد دخلت في هذه اللعبة وبأقل من ربع ساعة أصبحت بطلا فيها وهناك لعبة اخرى وهي عبارة عن اكياس صغيرة مملوءة رملا ترمى من بعد الى مربعـات غير مربعات اللعبة السابقة في هذه المربعات ارقام لكل مربع رقم يرمي اللاعب بالكيس فمن وصل كيسه ابعد من غيره يكون هو الرابح وهذه لعبـــة لاظهار القوة وغيرها : خشبة مستطيلة بثخن عشر سنتيات في وسطها عامود رأسه كالأهرام بارتفاع متر في جانبه عدد من حلقات الليف شبيه الكعك يرمي اللاعب من بعد مخصوص بالحلقة فالذي يدخل اكثر من غيره حلقاً من الليف في العامود يكون هو الرابح والخلاصة كان هناك عدة العـاب لا لزوم لذكرها كلها واكثر الركاب يشتركون باللعب نسـاء ورجالا ولا يمتنع عن اللعب الا من يجهل الألعاب ولا افتخر اذا قلت باني تعلمت جميع هذه الألعاب واتقنتها وكنت محور اللعب طول هذه الفترة . ويوجد من الألعاب غير ما ذكرت لعبة سبق الخيل وهي من اخشاب على شكل الفرسان

تصف في مربعات ستة بعضها جانب بعض لكل فارس بيت خاص كبيوت الشطرنج وكل فارس يحمل رقماً ، وبهذه اللعبة شبكة من شريط مخروطي كساعة الزجاج الرملية لها طرفان مثقوبة من المنتصف عند اجتماع رؤوس المخروطين تدار بدولاب فيها ثلاثة فصوص من فصوص النرد كبيرة الحجم يحرك دولابها بالدوران ومتى وقف الدولاب تسقط الفصوص المسدسة الأوجه وتستقر في أسفل الشبكة فالرقم الذي يكون في الوجه الأعلى من الزهر يسير فارسه قاطعاً المربعات بمقدار اعداد الرقم فان وقف الزهر على رقم ثلاثة واربعة وستة مشى الفارس ذو الرقم الثالث وذو الرقم الرابع وذو الرقم السادس واذا جاء الثلاث زهرات برقم واحد يسير فارس الرقم ثلاثة بيوت من بيوت ذلك الرقم والذي يسيّر الفارس احد الخدم ينقل الفرسان في البيوت الى ان يسبق اول فارس فيكون الرابح للسبق ولهذا السبق اوراق تباع المتفرجين يتراهنون فيها على السابق مقابل مبلغ طفيف يجمع في نهاية الشوط مجموع الدراهم المدفوعة ثمن اوراق اللعب ويخصم منها (١٠) بالمائة لادارة الباخرة والباقي يعطى للرابحين اي لمن يحملون اوراقاً برقم الفارس الفائز وهذه اللعبة مسلية ولكنها على كل حال لعبة (قمار) .

***

في البحر الابيض المتوسط :

قلت ان الباخرة تحركت بنا في الساعة الثانية من بعد ظهر الاربعاء في اليوم الثاني والعشرين من شهر شباط ١٩١١ من ميناء الاسكندرية وكان البحر في غاية الهدوء والهواء عليلا والركاب يمرحون في الماشي وعلى ظهر الباخرة يسيرون ازواجاً وفرادى وتقدم مني شابان يتكلمان اللغة العربية جيداً باللهجة المصرية وقدما لي انفسهما احدهما يدعى « المسيو باروخ

بنطاطا والثاني يدعى باصيل بصالتي » وكلاهما يهودي وجلسنا في المشى نتمتع بمناظر البحر والتموجات الخفيفة ونتحدث أحاديث مختلفة وبقينا على هذا المنوال الى ان حان وقت الطعام فتناولنا العشاء وصعدنا الى الصالون وهناك اجتمع جميع ركاب الدرجة الثانية وبدأ التعارف بين الركاب وكان بينهم رجل الماني بدين يدعى « الهر بريك » خفيف الروح جداً لم يترك فرصة الا اقتنصها للتفريج عن المسافرين وتسليتهم وبالحق انه كان سلوتنا من الاسكندرية الى مرسيليا وبعد التعارف مع بعض الركاب انتحى كل جماعة منهم ناحية وجعلوا يلعبون الورق والشطرنج والنرد ودار باروخ ورفيقه باصيل على الحاضرين يسعون لتشكيل لعبة « بوكر » فتوفقوا لايجاد بعض اللاعبين وسألوني هل تلعب البوكر ؟ قلت لا . قالوا تعال نعلمك اياها قلت لااريد ، قالوا لماذا ؟ قلت لأنها في البدء لعبة بوكر ولكنها في النهاية « بوف يير » ومعناها باللغة التركية « أكل هواء ... » وكان جانبي رجلان يسمعان حديثنا فضحكا وكلماني باللغة التركية وهما روميان ، وكان هذا الحديث ورفضي اللعب سبباً لعقـــد أواصر الصداقة بيننا احدهما يدعى قسطاكي افندي والثاني جورجي افندي وقد قضيت اكثر اوقات السفر من الاسكندرية الى مرسيليا بصحبتهما وتقدم مني شاب ايطالي وعرفني بنفسه يدعى « المسيو ميشيل سبيرنلك » يتكلم اللغة الافرنسية بصعوبة ، هذا الشاب جاءني يوماً الى غرفتي وغرفة البواخر تسمى « قمرة » وجلس عندي يحدثني بلغة افرنسية مكسرة ومع الأسف كانت افرنسيتي مكسرة اكثر منه وبعد فترة من الزمن اخرج من جيبه رسوم بنات عاريات بأوضاع مختلفة ورسوم اخرى فيها مناظر فحش وأفهمني ان الباخرة سوف تقف في نابولي وانه يعرف نابولي وله فيها صديقات من هؤلاء النسوة وقدم نفســـه لي

كدليل خير يحب خدمة الأنسانية مقابل أجر طفيف لا يزيد عن الخمسين فرنكا مقابل تعريفي بأحدي الفتيات الجميلات فصرفته بالحسنى وتجنبته بعد ذلك وعندما نزلنا في نابولي « فركتها » منه ولم اصاحبه في الجولة التي جلتها فيها كما سيجي٠ .

***

الشطرنج :

من الألعاب المحببة الى المسافرين لعبة الشطرنج والذين كانوا يلعبونها اكثرهم من الطبقة الغنية وقد جلست الى جانب لاعبين يلعبان بالشطرنج وقضيت وقتا طويلا جانبهما وانا اتفرج دون ان اتكلم كلمة واحدة ولم « ادودب » لامع هذا ولا مع هـذا « والدودبة » في لغة الشطرنج هي ان يساعد المتفرج احـد اللاعبين بالفاته الى لعبـــة اذا لعبها يكون له منهـا فائدة واكثر المتفرجين في بلادنا « يدودبون » والذي رأيته في اوربا « لايدودب » احد مع احد الا اذا كانوا شلة اصدقاء مرفوعة بينهم الكلفة ، وبعد ان انتهيا من



رقعة الشطرنج

لعبها سألني احـد الجالسين وهو رجل « الماني يدعى الهر باربو » هل تلعب الشطرنج قلت قليلا ، قال أتحب ان تلعب (دقا) دستا بالشطرنج قلت نعم فلعبنا واجتمع حولنا اللاعبون للتفرج ولعبنا دستا خرجنا به (باطه) ثم آخر غلبني فيه وانتصف الليل وجعل الركاب ينسحبون الى (قمراتهم)

وكان البحر هادئاً والباخرة تسير بسرعة يسمع لمراجلها صوت ضعيف وكان اهتزازها خفيفاً فلم يؤثر الدوار على احد وانسحبت الى قمرتي ونمت بهناء.

***

هل نسيت القبة :

صحوت باكراً ولما ارتديت ملابسي وجدت في رقبتي بعض الحرارة من قبة القميص (الكوتشوك) فلم أضعها وتركتها مع « الكرافات - قمطة الرقبة » لاريح رقبتي وذهبت الى غرفة الطعام لتناول الفطور (كسر الصفرة) ولم أكد ان اصل الى المكان المخصص لي واتقدم للجلوس واذ رئس الخدم (شيف دوتابل) يتقدم مني بلطف ويشير الى رقبتي قائلا : اظنك نسيت القبة قلت لا وأريته حبوب الحرارة الظاهرة في رقبتي ، قال بأمكانك ان تلفها بشيء يستر الرقبة لأنه لا يجوز الجلوس على المائدة بين الركاب بدون (قبة وكرافات) فرجعت الى القمرة ووضعت قبتي وعدت وبعد الطعام قضينا الوقت على سطح الباخرة وفي الماشي بالرغم عن برودة الطقس واخيراً اخذت كتاباً وجلست في مقعدي اطالع وكان الركاب منتشرين في الباخرة منهم من يدمدم ومنهم من يصفر لحنا ومنهم من يقرأ او يحدث رفيقه وقرب الساعة العاشرة صباحاً جائني « الهر باربو » طالبا اللعب بالشطرنج فقمت الى الصالون وجلسنا نلعب دستاً .

***

السيدات والشطرنج :

وبينما كنا نلعب واذ بسيدة تدخل يصحبها زوجها وابنتها ووقفوا يتفرجون على اللعب وكان الألماني يتكلم الافرنسية بصعوبة كذلك كانت افرنسيتي ولذلك كان تفاهمنا بالاشارة وبعد عشر نقلات في الأحجار اخذت

الدست بغلطة غلطها الرجل وعنـــد الأفرنج لايجوز الرجوع في اللعب خلاف العادة عند العرب فانهم يرجعون في العابهم اذا كان الاتفاق بين اللاعبين على ذلك .

فلما اخذت الدست (الدق) صفقت بيدي وطالعت من القاموس كلمة انتقام وقلت له أخذت بثأري منك وجعلنا نضحك جميعاً من تكلمي بالاشارة وقالت لي السيدة أتحب ان نلعب دستاً ولو لم يكن بيننـا معرفة فقلت بكل سرور ، قالت أنا مدام المسيو فيليب وهذه ابنتي قلت وانا المسيو فخري وخطيبتي في بلدتي فضحكنا وجلست فغلبتني دستين واخذت دستا واحدا وقمنا على ان نعود الى اللعب مرة ثانية لأخذ الثأر وظهر ان زوجها يلعب اكثر منها لأنه نبهها الى بعض الألعاب أي (ديدب) معها ونبهته الى لزوم الوقوف على الحياد واذا شاء لعبنا سوية في وقت آخر فقبل وكانوا من ركاب الدرجة الأولى فذهبوا بعداللعب وقمت الى الظهر استروح الهواء وجلست أطالع في كتاب تاريخ العباسيين وغرقت بالمطالعة ومرت امامي تلك العصور الزاهية ثم ادوار الانحطاط ، فتركت الكتاب وجعلت افكر بأمتي العربية وهل يعود لها عزها فترجع امة حية بين الأمم أم تبقى عالة على البشرية نأكل ونشرب وننام كالحيوانات وبقيت سابحاً بهذه الأفكار الى ان نبهني اعلان النذل بضرب جرس الطعـام فنزل الركاب جميعهم الى الموائد ومن نعم الله عليَّ انني كنت ممن اعتاد ان يأكل على الطريقةالغربية وكان في زمننا الطعام يوضع على صينية كبيرة من نحاس يجلس حولها افراد الأسرة ، اما على الارض فوق بساط او حصير واما على كراسي صغيره ولم تكن ادوات السفرة معروفة لدى الدمشقيين ولم يكن معروفاً غير الملعقة

أما الشوكة (الفرتيكة) المعدن فلم تكن معروفة الا عند الطبقة الراقية ولم تكن السكاكين عندنا توضع على الموائد .

وكان على المائدة اناء خردل بعيد عن الرومي فقام ومد يده لأخذه فأصابت ابريق الماء فوقع على المائدة وساح الماء على المنضدة واضطرب الجالسون جانب الرومي الذين اتجه الماء نحوهم وخجل الرومي خجلا مابعده خجل وبعد الطعام بينما كنا نسير في المشى واذ برئيس الخدم يتقدم من رفيقي الرومي ويختلي به في احد جوانب الباخرة ثم يتركه ويعود الينا الرومي ويخبرني انه تلقى درساً في آداب الطعام من رئيس الخدم



تناول الطعام على الصينية

لاينساه مدة حياته ، والذي فهمته منه انه قال له ان الجالس على مائدة الطعام لايجوز له ان يقوم ليتناول شيئاً من الأدوات عن المائدة كما انه لايجوز له ان يمد يده بأكثر مما تصل اليه ، واذا لزم احدهم شيئاً بعيداً عنه كالملحة أو أي شيء غيرها وكان في جانبه أعظم الرجال قدراً أو أعظم

السيدات مكانة مسموح له بان يطلب منهم ما يريده او ممن هو اقرب الى الاداة المطلوبة من الجالسين ، وقد اخذت عبرة من هذا الدرس ولم أقع في خطأ مثل هذا لله الحمد .

***

العادات :

العادة في اللغة الديدن سميت بذلك من العود اي الرجوع لأن صاحبها يعاودها ويرجع اليها مرة بعد اخرى وقد عرفوها بحدود كثيرة مرجعها جميعا الى الأعمال المتكررة التي يألفها الانسان والحيوان جماعات وافرادا وقد قالت العرب العادة خامس طبيعة وقالت الأفرنج العادة طبيعة ثانية .

والعادة خاصة وعامة فالخاصة تخص كل فرد باحوال معلومة والعامة تشمل امة بأسرها او طائفة من طوائفها أو شعبا من شعوبها او قارة من القارات الأرضية ولهذا اصبح لكل شعب عادات خاصة به تسوقه الى هذه العادات حالات المكان والزمان فيألف من المطاعم والمشارب والمساكن والأخلاق والأهواء ماتسوقه اليه حاجته بادىء بدء ثم يألف تلك العادات حتى تصير ملكة فيه ومتى رسخت العادة في قوم أصبحت سنّة له وصارت عرفاً عاماً ثم قانوناً مشروعاً وان لم يصدر به مراسيم وقرارات حكومية مصدقة من المجالس . ولهذا اعتبر المشترعون العرف المبني على العادة العامة بمنزلة لاتنزل عن الشرع المشروع . ومع ان القوى الطبيعية متفاوتة بين فرد وفرد آخر من بني الانسان ولكن ائتلاف كل قوم على عادات مخصوصة يضرب حجاباً ظاهراً على ذلك التفاوت ويجعل فيه نوعاً من التناسب يستحسنه الذوق وترتاح اليه النفس وعادات الأمة هي أساس مظهر اخلاقها وآدابها لذلك يجب على السائح مراعاة عادات اهل البلاد التي يزورها ،

ومشاركة أهلها بما لا يمس بأمور دينه ومن خالف عادات القوم الذين يمر بهم يكون عرضة للهزء والسخرية وليجتنب السائح في الاجتماعات العامة الحركات غير اللائقة والهزء والسخرية بعوائد الأقوام خصوصاً طقوسهم الدينية مهما كان فيها من الشواذ واذا ظهر من السائح حركة استهزاء بقوم وتعدى عليه بعض الرعاع فلا يلومن الا نفسه.

وسأذكر بعض العادات بصورة مجملة عند مروري في كل بلدة من بلدان القارات الاربعة اوربا واميركا وافريقيا وآسيا حسبما تقتضيه الظروف.

***

ام دوك :

في اليوم الأول من ركوبنا الباخرة من الاسكندرية تقدمت مني سيدة افرنسية تصف تسحب كلبا صغيرا من نوع « بولدوك Bouledogue » من أحرك ماخلق الله من الكلاب و (اشطنها) تقدمت السيدة وطلبت مني بلطف ان اساعدها بجلب مقعد بحري لتجلس عليه فأسرعت وأحضرت مقعداً وفتحته وقدمته لها فشكرتني وجلست جانبي وحضنت الكلب وجعلت تقبله وهو يلحس وجهها وشفتاها فأنفت من ذلك ونفرت



ام دوك لباس النساء في ذاك العصر

نفسي منها وعددت مساعدتي لها عملا انسانيا وقلت بنفسي هي ساعة وتمضي ولم أعلم أنها مثل (الدبيقة) سوف تعلق بي الى آخر السفرة وكلبها المدلل لم يكن ليبرح من حضنها فكانت تقبله ويلحس وجهها وشفتيها ولا تتركه ثانية واحدة بعيداً عنها، وصار الركاب يتأففون منها واينما حلت هرب الجالسون. وقد صدف ان افلت منها مرة وجلس بحضن رجل نهره به ورماه أرضاً ولما رأته صاحت وقامت قيامتها وملأت الباخرة زعيقاً وحضنته وجعلت تقبله وتراضيه كأنه طفل «حردان».

هذه السيدة استلطفتني مع اني استثقلت دمها وعقلها فجعلت تتعقبني من مكان الى مكان وكلما جلست جانبي ابحث عن طريقة للابتعاد عنها وقد اسميتها «ام دوك» ومشى هذا اللقب عليها بين الركاب وقد احست المسكينة بنفور الناس منها فصارت تجلس في زاوية تطالع بكتاب وتداعب ابنها المحروس دوك الذي ابغضته بمقدار حبي للجمال ومن العجائب ان الأخ حسني افندي تللو المشهور بحب الجمال يحوي عنده كلباً من هذا النوع ولعل له به غرضا لا نعرفه ولله في خلقه شؤون. وبمناسبة هذا الكلب سأتحدث عن كلاب اوربا.

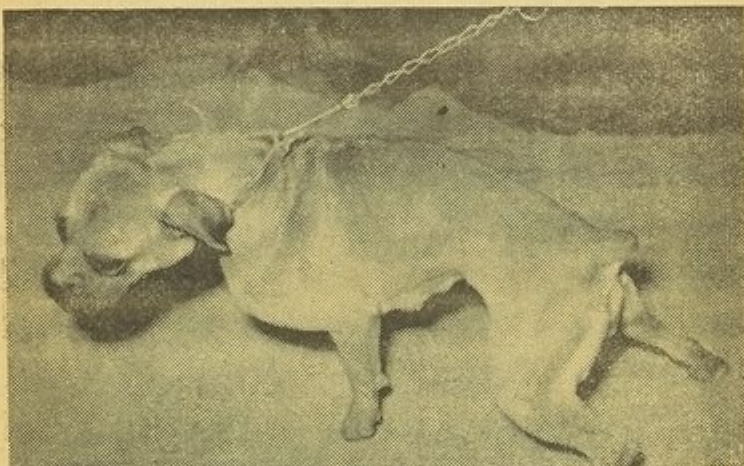
***

الكلاب في اوربا:

عناية الأفرنج بالكلاب مشهورة وفي فرانسا كما في غيرها من البلدان جمعيات متعددة خصوصية ومنها جمعية عمومية لتحسين انواع الكلاب وتشترك هذه الجمعيات في المعارض الدولية او تقيم معارض خاصة لعرض أنواع وأصناف الكلاب والحكومات تعطي الكلاب الفائزة أوسمة كما ان

هذه الجمعيات تعطي « الأنواط مداليات » وشهادات للأنواع الممتازة وأصناف الكلاب عديدة منها :

للحراسة في الريف ومنها للحراسة في المنازل ومنها لحراسة المواشي ، ومنها الكلب الأليف الجليس « مثل المسيو بولدوك » ومنها المصاحب الصديق ومنها للزينة والزخرفة ومنها لجلب الحاجات من الأسواق وكلاب الصيد



بولدوك

والقنص والسلوقي وقانص الذآب وقاتل الثيران وللكلاب اثمان تختلف باختلاف الأنواع وتتراوح اثمانها بين (٥) فرنكات ذهب الى ٥٠٠ ليرة انكليزية ذهبية واصحابها يعرفون كيف يربونها وقد جعلوا تجارتهم منها واكثر اصحاب الكلاب هنّ من السيدات وللكلاب تجار خصوصيون معروفون يرسلون الكلاب المباعة الى أقاصي الأرض اذا وضع الثمن المطلوب.

طلبت شرف كلبها :

حدثني السيد خير الدين الزركلي ان احد اصدقائه كتب له من نيويورك ان سيدة تركت كلبها في الشارع دون سلسلة وكان هذا الرجل يجلس في احدى الحدائق فاحتك الكلب به فطرده وضربه بالعصا « البستون » فقامت قيامة صاحبته وشكته للشرطي الذي اخذهما الى مخفر الشرطة وهناك حولوه الى المحكمة وعينت له يوما خاصا وفي يوم المحاكمة طلبت السيدة شرف الكلب فقال الرجل اني مسلم والكلب نجس في مذهبي وقد طردته فلم يذهب وخوفاً من ان تلحقني النجاسة وتمنعني عن صلاتي اضطررت لضربه وعلى السيدة اذا كان لكلبها شرف تخاف عليه فلتربطه بسلسلة ولا تدعه يؤذي الناس ، ولما تثبتت المحكمة من الخبراء ان الكلب نجس عند الاسلام حكمت على السيدة بان تعطيه اجرة اسبوع جزاء نقديا تعويضا عن عطلته. وعلى ذكر الكلاب التي تجلب الحاجات اذكر هذه القصة .

***

الكلب الأعمى:

حدث عابدين بك والد الدكتور مطاع بك عابدين قال كان له صديق يدعى اديب افندي مفتي الاي يسكن في السنجقدار في حارة المملوك كان لهذا الرجل كلب كبير من نوع ممتاز من كلاب اوربا ، هذا الكلب كان يحضر لصاحبه لوازم المنزل من عند اللحام والسمان والبقال كما انه يحضر كل يوم التعيين من فرن القلعة والتعيين في زمن الحكومة العثمانية كان يعطى للضباط والمتقاعدين لكل واحد مقدار مخصوص من اللحم والخبز غير الراتب يؤخذ عيناً فكان تعيين الملازم ستة ارغفة « طوب خانة » والرئيس تسعة ارغفة من خبز الارمن الكبير وكان للمفتي ألاي اميي ثلاث تعايين اي تسعة ارغفة

يذهب الكلب يومياً الى فرن العسكرية في قلعة دمشق فيضع له الفران تسعة ارغفة في السل ويعود به الى دار صاحبه ومضى مدة على هذا الحال وفي احد الأيام جاء بثمانية ارغفة فظن صاحبه انه أكل الرغيف فلم يأبه للأمر ، وفي اليوم الثاني والثالث والرابع جعل يأتي بالخبز ناقصاً فتعقبه صاحبه يوماً عن بعد فرآه حمل السل وفيه الارغفة التسعة ومشى نحو الشرق في حين ان دار صاحبه غربي" القلعة فتعقبه الى ان وصل الى باب السلام وهناك وقف الكلب واخذ الرغيف ووضعه امام كلب أعمى ووقف يحرسه الى ان اكله وعاد الى الدار فتعجب صاحبه وتحير بصنع الله في خلقه وكيف سخر الله الناس والحيوان ليخدم بعضهم البعض الآخر سبحانه وتعالى وهو أصدق القائلين :

« وكأيّنْ من دابّةٍ لا تحملُ رزقَها اللهُ يرزُقها وإيّاكُم وهُوَ السميعُ العَليم » .

***

هياج البحر :

في اليوم الثاني من ركوبنا البحر اشتدت الأنواء (وكبر البحر) وجعلت الأمواج تلعب بالباخرة لعب القط بالفأر وداخ اكثر الركاب فمنهم من انسحب الى قمرته ومنهم من جلس على كرسيه في الممرات دون ان يحفل بالعاصفة ويظهر ان بعضهم كان يكابر بالمحسوس ليرينا انه لا يأبه لشيء مما يجري ، ولكن لم يطل الحال حتى هرب جميع الركاب الى قمراتهم واكثرهم مصاب بالدوار . وفي اليوم الثاني هدأ البحر قليلا وبقينا الى المساء لا نرى الا الماء والسماء وفي الساعة الخامسة ظهرت لنا اراضي صقلية

« سيجيليا ـ Sicile » (١) عن بعد فصعد اكثر الركاب الى سطح الباخرة ينظرون بالنواظير والسائح الذي يركب البحر لابد له من ناظور جيد يقرب له المسافات البعيدة وبقينا مقدار ربع ساعة نتطلع الى سواحل صقلية ثم بدأت تظهر لنا اراضي « قالابريا ـ calabre » عن بعد وبعد قليل دخلنا « بوغازمسينا » وهو مضيق بين اراضي صقلية و « قالابريا » وبقيت الباخرة في المضيق اكثر من ساعتين ونصف والنوء شديد وقد ذكرتنا هذه الليلة بليلة الباخرة قصير بين حيفا ويافا بل ان هذه الليلة كانت اشد حتى ان الموج كان عند ميل الباخرة على احد جانبيها يضرب من فوق السطح وعندما تستوي الباخرة تسيل المياه من الجانب الآخر وتحمل الركاب مالا يوصف من الصعاب ولما خرجنا من المضيق اعتدل النوء وهدأ الاضطراب وعادت الباخرة الى سيرها الأعتيادي وعاد الركاب الى العابهم وفي الساعة العاشرة من صباح يوم السبت الواقع في ٢٥ شباط قرع جرس الطعام فنزلنا الى الغرفة متسائلين عن سبب تقديم الوقت فقالوا ان الباخرة ستصل الى ثغر « نابولي » وهو من ثغور ايطاليا الجميلة والركاب الذين يريدون الفرجة على نابولي يجب ان يتناولوا طعامهم باكراً فتناولنا

---

(١) صقلية بثلاث كسرات وتشديد اللام والياء المفتوحة وهي اكبر جزر البحر المتوسط تنفصل عن « قالابريا ـ calabre » بمضيق مسينا او مسيني وهي جزيرة ايطالية فتحها العرب سنة ٢١٢ هـ الموافق ٨٣٠ م في زمن المأمون بن الرشيد فتحها اسد بن الفرات عنه على الجيش زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب والى القيروان من قبل المأمون وبقيت بيد الاغلبيين الى سنة ٩١٧ م حيث تغلب عليها الفاطميون فدخلت بحوزة الخلفاء الفاطميين وبقيت بيدهم الى اواخر القرن الحادي عشر الميلادي حيث تغلب عليها النورمنديون وجرت عليها حروب كثيرة ودخلت في حكم الالمان والافرنسيين وجرى فيها حوادث كثيرة الى ان انضمت الى ايطاليا سنة ١٨٦١ ولم تزل تابعة لها الى اليوم .

الطعام بسرعة وكتبت اسمي مع من يريد النزول الى نابولي ولم يكن في ذلك الزمان « جواز سفر — passeport » ولم يطلب مني الجواز الا عند دخولي الى الآستانة في عودتي من اوربا كما سيجيء .

***

ماذا رأيت في نابولي :

في الساعة الحادية عشرة بانت لنا نابولي وكلما تقدمت الباخرة كانت تظهر لنا اليابسة ونابولي ثغر من ابدع ثغور البحر المتوسط وهي في غاية الجمال بمناظرها الطبيعية فكأنها عروس قائمة على ساحل البحر المتوسط فيها اشجار باسقة وبساتين بديعة ، وقرب الظهر وقفت الباخرة في الميناء وتقرب مني « المسيو سبيرناك » الايطالي متحككاً يريد ان ننزل معا فيكون دليلي في نابولي فرفضت بصراحة واستأجرت عربة بواسطة شرطي واقف امام رصيف المرفأ وأريته الساعة وان مرادي ان ادور البلدة في العربة فتفاهمنا بالاشارة وافهمني ان اجرة العربة « فرنكين بالساعة » فركبت ومشى الحوذي يريني البنايات والهياكل القائمة في الشوارع ويشرح لي بالايطالية عنها دون ان افهم منه شيئاً وبعد ثلاث ساعات عاد الى الميناء وكانت الساعة حوالي الرابعة ولم يزل لدينا من الوقت مايسمح لي بالفرجة فسرت على الرصيف متنقلا والذي رأيته في نابولي جمالها وانتظام شوارعها والاشجار القائمة في الشوارع الواسعة وقصرها المزخرف الذي يشبه القلعة وهو مايسميه الافرنسيون :

« لوكاستيل نوفو »

***

سوق الملك :

من اجمل مارأيته في نابولي سوق الملك وهو بناية على هيئة الصليب



احد مناظر نابولي الجميلة ..

مبنية على شكل خطين متقاطعين مسقوفة بالزجاج وداخل الخطين المتقاطعين ساحة مدورة والحوانيت على طرفي اركانها الاربعة وفيها مقاهي للاستراحة ولها اربعة ابواب يحار المتفرج بما يراه في هذا السوق من المصنوعات البلورية والنحاسية والمعدنية والاواني الخزفية والثريات والشمعدانات الثمينة التي قل نظيرها في الدنيا .

***

الفقر في ايطاليا :

يحس السائح من النظرة الاولى ان اكثر اهل ايطاليا من الفقراء ومن يدقق النظر في وجوه الطبقة العاملة يرى فيها الشحوب ظاهراً واستجداء الايطاليين السكاير من السياح مباح ولا يجد الايطاليون اي عار بطلب السكاير من الغرباء وهذا مارأيته في كل مرة زرت فيها ايطاليا .

والدليل على كثرة الفقراء في ذلك الزمن وقوف عشرات النساء على رصيف الميناء ينتظرن الشبان الاغراب للاجتماع اليهم وكسب بعض الدراهم من بيع انفسهن في سوق اللذة .

جلست في مقهى فاحتاط بي ست سيدات كل منهن تدعوني لزيارتها ولما رأين رفضي طلبن مني ان اضيفهن بكأس من الجعة « البيرة » فلم اتمكن من الرفض وضيفتهن بما طلبن وتمشيت الى مطعم قريب وقلت مادمت الآن في ايطاليا فلأجرب اكلتها الوطنية وقلت لرجل واقف « مسيو منجرية معكرونة » فضحك ودلني على مطعم قريب وهناك طلبت بالاشارة صحناً من المعكرونة فاحضروه لي بعد ربع ساعة مع صحن من الجبن المبروش وبالحقيقة وجدت بهذا النوع لذة فائقة لانعرفها في المعكرونة التي نأكلها في بلدنا وللطليان اعتناء تام بهذا الطعام ولهم في طبخه عدة طرق . واني اقول :

كما ان « الكبة » هي الطعام الوطني للسوريين « فالمكرونة » هي الطعام الوطني للايطاليين والبطاطا للأفرنسيين .

ان الايطاليين مشهورون بدقة الصناعات وبينما انا اتنقل في الميناء مر بي عدد من الشبان يحملون هيا كل من (جبصين) او من الرخام الابيض والملون وغير ذلك من افواه السكاير وعليها مصنوعة احسن صنع والأواني البلورية المركبة مع المعادن ، إن من اواني الزينة او من اواني الأستعمال وهي غاية في الأبداع والجمال وهي من اشهر الصنعات في ايطاليا كما ان اهلها مشهورون ايضا بالموسيقى وصنع اوائلها على اختلاف انواعها وعندما جلست في المقهى كانت اجواق الموسيقى المركبة كل جوقة من عدة اشخاص والتي لايقل عدد احداها عن الخمسة موسيقيين تمر من امامنا ويركبون الزوارق ويدورون حول البواخر فيقف الركاب يتفرجون على الأجواق ويسمعون انغام موسيقاها وغناء افرادها نساء ورجالا فيرمي الراكب بما تجود به نفسه الى الجوقة فتقع الدراهم في الزوارق فيلتقطها رئيس الجوقة ويقدم الشكر للمحسن .

***

الغطاسون

وهناك اطفال صغار اكبرهم في سن المراهقة واصغرهم لايقل عن السابعة من عمره يلقون انفسهم في البحر ويغوصون لأخراج مايرميه اليهم الراكب من الدراهم فيخرجون القطعة في فمهم ويتسابقون عليها بالغطس، مما يضحك الانسان ويؤلمه في آن واحد لأن نزول هؤلاء الاطفال في البحر في مثل هذا الطقس لتحصيل شيء من الدراهم يدمي القلوب وويل للأنسان الذي لايتألم لشقاء اخيه الانسان .

اسرق من الفار :

اما اهل نابولي فكانوا اسرق من الفار واحرق من النار وايطاليـا كانت مشهورة بتصدير اللصوص الى العالم واذا لم يكن الغريب واعياً لاشك انه يكون عرضة حتى لسرقة قبعته ومما وقع لي انه كان في رجلي عندما نزلت الى نابلي « كندرة صب » خوفا من الطين ولما جلست في « القهوة ـ المقهى » ناديت ماسح احذية (بويه جى) وبعد ان مسح حذائي اعطيته كندرة الصب ليمسحها فمسحها ووضعها في جانبي وذهب وما كاد يتوارى عن عيني حتى التفت فلم اجدها وعبثا حاولت البحث عنها وقد راجعت البوليس الواقف فلم اقدر ان افهمه مقصدي ولا فهمت منه ماقاله وطلبت عوضي من الله وعدت الى الباخرة ووقفت مع الركاب على السطح نتفرج على الميناء وعلى العمارة(١) الايطالية الراسية في هـــذا المرفأ .

ومما لفت نظري لما كنت ادور في البلدة شاب واقف امام منضدة موضوعة في عربة يجرها حصان عليها صندوق كبير في داخله آلات لم ارها يقف بين الحين والحين في الشارع ويتكلم بسرعة كالخطيب المفوه يعلن عن شيء ولم افهم من كلامه شيئاً وأخيراً يأخذ ورقة بيضاء بقدر الكف يبلها بالماء ويدخلها بثقب مستطيل ويدير دولاباً فتخرج الورقة من جانب الصندوق المقابل مطبوعة ملونة مثل ورقة « البنك نوت » وكان الشارع يمتلىء بالناس عند وقوفه لالقاء خطبته وقد طارت ساعات بعض المتفرجين من ركاب الباخرة الذين وقفوا للتفرج بين الناس واحمـد الله اني كنت راكباً في العربة آنذاك فحمى الله ساعتي من السرقة .

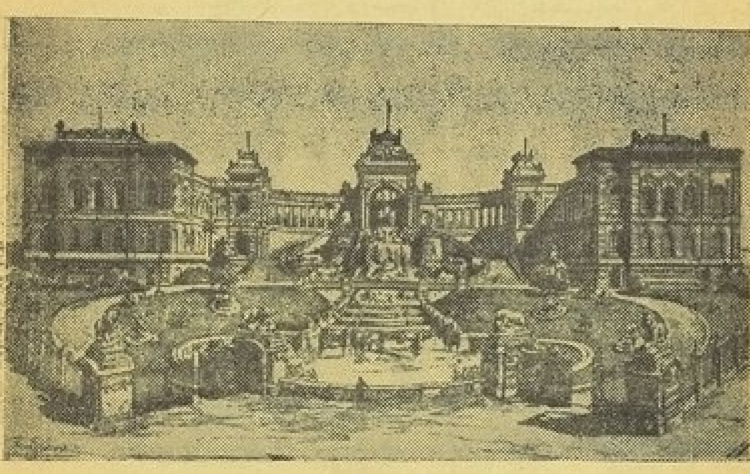
***

---

(١) العمارة طائفة من السفن الحربية تتكون منها وهي كلمة مولدة .

آخر ليلة في الباخرة :

قضينا آخر سهرة في الصالون على العادة وودعنا بعضنا عند منتصف الليل وذهب كل منا الى قمرته وفي صباح الاثنين صحوت باكراً وجمعت امتعتي ورتبتها في الحقائب وجلست في الممشى مع الروميين ننتظر بصبر فارغ ان تظهر لنا مرسيليا وبعـــد ان تناولنا الفطور اخبرنا الخادم ان مرسيليا ظهرت من بعد فصعدنا ووقفنا نتفرج الى ان دخلت



بلاس دولونك شامب في مرسيليا من اجمل البنايات

الباخرة الميناء ورمت مراسيها جانب الرصيف ، ومرسيليا من اكبر ثغور فرانسا والحركة فيها تدهش النظر . نقلنا أبصارنا في هـــذا الميناء ورأينا حركة الملاحين الدائمة وكثرة الزوارق واللنشات والبواخر وفي ناحية من الميناء قسم من الاسطول الافرنسي وحداته قريبة من بعضها ، جماله يبهر النظر وما كادت الباخرة تقف حتى هرع الركاب الى النزول ومررنا بالكمرك

وبعد التفتيش خرجنا الى البلدة وركبت عربة يجرها حصان مفرد واكثر عربات فرانسا كانت بحصان واحد وطلبت من السائق ان يأخذني الى « اوتيل » قليل التكاليف (بون مارشه) فأخذني الى اوتيل صغير وضعت فيه امتعتي واسترحت قليلا وطلبت من صاحبه ان يدلني على « القنصلية » العثمانية فدلني عليها وكانت قريبة من الفندق فذهبت لأرى القنصل وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة ولما وصلت وجدت معاون القنصل وهو شاب تركي يدعى لطيف افندي حييته برفع القبعة وارجعتها الى رأسي .

***

غليظ افندي :

واذا به يصرخ صوتاً مزعجاً سمعه الناس من الشارع : قبعتك قبعتك ، وكانت كلمته بالافرنجي « votr chapo » قلت بالتركية ماهاقبعتي قال اقلعها عن رأسك وتعلم المدنية . قلت أريد ان اتعلم المدنية بهذه العقلية ان هذه المعاملة هي ثقيلة ونحن لسنا عبيدكم بل نحن أسيادكم ، رواتبكم منا نحن ابناء الشعب وانتم الموظفين لستم الا خدماً للشعب وبما ان اسمك لطيف كان يجب عليك ان تكون معاملتك للناس خصوصاً لرعايا الدولة لطيفة مثل اسمك ولكن بكل اسف اقول ان معاملتك ثقيلة غليظة وليتهم سموك « غليظ افندي » بدل لطيف افندي وتركته مدهوشاً وخرجت وانا ارتعد غضباً من هذه المعاملة وكان في الباب بضعة اشخاص من المراجعين منهم الترك ومنهم العرب ركض اليّ ابناء العرب يشكرونني على هذا الموقف الذي رأوه مني تجاه هذا المتعجرف واخبروني ان معاملته لأبناء العرب دائماً بمثل هذه الفظاظة وانه يقدم ابناء الترك ويقضي حوائجهم باسرع من البرق ويؤخر ابناء العرب اياماً لا لسبب بل لأظهار تحكمه .

هذا ما رأيته من احد صغار موظفي الأتراك في « قنصلاتو » مرسيليا مع ان المشهور عن موظفي خارجية الدولة العثمانية انهم من ألطف الناس وأدمثهم اخلاقاً وما كنت ادري اني ارى بينهم رجلا فظاً من فصيلة « غليظ افندي » .

***

السفراء والقناصل في زمننا

السفير Ambassadeur في اللغة الرسول ، المصلح بين القوم جمعه سفراء واصطلحت عليه الدول لممثل دولة اخرى تنتدبه حكومة للاقامة في عاصمة الدولة المرسل اليها وهو نائب ملكه او رئيس جمهوريته عند هذه الدولة وشخص السفير محترم لايمس لانه يمثل ملكه وهو معفى من جميع الاحكام المحلية في المملكة التي يرسل اليها .

والاعفاء يشمل اعضاء اسرته فهم فيه سواء لايسجنون ولا يحجز عليهم ابدا مهما اتوا من الذنوب وهو الحاكم المطلق على افراد رعيته وجالية بلاده فاذا حدث من احدهم ذنب يوجب العقاب كان السفير هو الذي يعاقب وفي مقر السفارة سجن لحبس المجرمين من رعية دولة السفير وكان للدول الاجنبية في الدولة العثمانية امتيازات الاجانب لايمكن لاحد ان يعبث بها مهما كان شأنه .

***

الامتيازات الاجنبية في البلاد العثمانية

في اواخر ايام الدولة العثمانية وفي دور الانحطاط كلما غلبت دولة من الدول الاوربية الدولة العثمانية يصبح للدول الغالبة امتيازات في بعض النواحي

تجبر الحكومة العثمانية على مراعاتها ومن يطالع التاريخ يعرف مقدار ماتحمله العثمانيون من تعدي الاجانب على رعاياهم وكلما نالت دولة امتيازا طالب بقية الدول بمثله حتى جاء يوم في دمشق اصبحت فيه عصا الاجنبي سيفا خصوصاً رعايا العجم لان الدولة العثمانية بعد انكسارها في الحرب التي قامت بينها وبين الفرس اخيراً وبعد ان غلبت على امرها رضيت بكل الشروط التي وضعها الفرس على الاتراك ومن هذه الشروط حماية الملتجىء الى دار السفير او « القنصل » مهما كانت جريمته وقد رأيت بأم عيني كيف كان قنصل العجم يحمي المجرمين وقد كانت دار القنصلية في محلتنا في محلة « شابكلية قنوات » وكنت في سن السابعة تقريبا وكنت العب مع اولاده علي خان وميرزا خان .

وكثيرا مايدخل اناس الى الدار ركضا ورجال البوليس وراءهم ولما يدخل الملتجىء الى دار القنصل وشعار دولة العجم معلق على بابها يقف رجال الشرطة خارج الباب ويعودون ادراجهم خائبين .

وفي اول القرن الحادي عشر هجري الى اواخر القرن الثاني عشر كانت شوكة قناصل العجم قائمة وكثيرون من الدمشقيين خصوصا الجعفريين منهم كانوا يسعون للحصول على الجنسية الايرانية وكم جانٍ من كبار الجناة خلص من المشنقة بالالتجاء الى دور القناصل . وكان يأتي بعد القنصلية الايرانية القنصلية الروسية ثم الانكليزية والالمانية والافرنسية وهكذا الى آخر قناصل الدول التي لها علاقات وسفراء في البلاد العثمانية .

***

عباية :

منذ مائة سنة تقريباً تعين سرور آغا (قبوقولي) مديراً لشرطة دمشق وكان شجاعاً قطع دابر الشقاوة ، وكان يلبس العباية وقد اتخذ أشقياء دمشق آنذاك كلمة العباية دليلا على صاحبها وعندما يخرج سرور آغا من دائرة الشرطة او من داره يصرخ اول من يراه بكلمة عباية فيسمعها اقرب رجل فينادي بها وهكذا كل من سمعها يكررها ولا يمضي عشر دقائق حتى يعرف آخر رجل في المدينة ان سرور آغا متوجه نحوه وكان الأشقياء وارباب السوابق والمحكومون يفرون عند سماع كلمة العباية ويختبئون الى ان يمر سرور آغا . وبعد موته بقيت هذه الكلمة في أفواه الدمشقيين .

***

حاكم ظالم :

وقد استلم بلدية دمشق متسلم(١) ترك يدعى مصطفى بك وهو رجل شديد يعامل الناس بالقسوة والشدة وقد اطلقوا عليه كلمة عباية وقد وقعت له حادثة مع احد الوجوه يعرف منها مقدار تأثير القناصل في ذلك الزمان وهي ان السيد ابو الخير تللو جد صديقي الظريف المعروف السيد حسني تللو وهو من اكبر تجار الحبوب كان جالساً أمام بايكته(٢) مع بعض عملائه واذ بالنداء عباية عباية فلم يلتفت الى ذلك وبعد برهة وصل مصطفى بك المتسلم الى امام البايكة وكان الوقت شتاء فوجد امام بابها شيئاً من الوحول فقال للسيد ابو الخير لماذا هذا الوسخ امام باب مخزنك قال سننظفه الآن وكانت العادة في تلك الأيام ان ينظف الناس الشوارع والحارات والبلدية

---

(١) المتسلم موظف من قبل الحكومة كان يقوم بوظيفة رئيس البلدية .

(٢) البايكة هي عند اهل دمشق مخزن مبيع الحبوب ويسميها الحلبيون خان الحبوب.

تنظف الباحات الكبيرة واطراف دائرة الحكومة فقط ، وأمر احد الخدم ان ينظف المحل فأبى مصطفى بك وقال لاينظفه الا انت بيدك وبفروتك وكان يلبس فروة فتداخل الناس وتوسطوا لديه بان يقوم بالعمل احد العبيد الواقفين فأبى وأصر فما كان من السيد ابو الخير تللو الا ان اجابه أمرك مطاع وتناول المكنسة وهجم على مصطفى بك وأشبعه ضرباً بعصاها وفر من الميدان ودخل محتمياً بدار قنصل العجم فأجاره من الحكومة وأعطاه الجنسية العجمية وبقي السيد ابو الخير من رعايا الدولة الايرانية الى ان اقتضى له امر احتاج فيه الى ان يكون متجنساً بالجنسية العثمانية وكانت الأسباب التي دعته للتجنس قد زالت فرجع الى جنسيته الأصلية ولله الحمد ان حفيده السيد حسني هو اليوم من رعايا الدولة السورية .

***



بناية السفارة الألمانية في الآستانة . كأنها قمة من قلاع الأمتيازات الأجنبية

الامتيازات الاجنبية في بلادالشرق :

ولم يتوقف الامر على بلاد الدولة العثمانية بل ان الدول الاجنبية خصوصا الدول المسماة بالعظمى كان سفراؤها ورعاياها عائشين في بحبوحة من الامتيازات يحفظون حقوقهم وحقوق رعاياهم ومن دخل تحت ظلهم وفي حوزتهم وكل ارض في الشرق اقام فيها اجنبي فهي بمقام ارض حكومته وسفراء الدول العظمى كانت سلطتهم وتأثير امتيازاتهم عظيماً في بلاد المشرق كالصين واليابان وايران وافغانستان والحبشة ومصر وغيرها من الدول الشرقية ، ولم يكن للسفراء في البلاد الغربية هذا التأثير وامتياز السفير فيها لايزيد على مايلزم لقضاء منطوق الاوامر المسلمة اليه وحكمه فيها حكم آمره لايتعداه فانه اذا لزمه دين حق للدائن ان يصادره بالطرق القانونية .

واليابان بعد حرب سنة ١٩٠٥ وانتصارها على الروس اصبحت من الدول العظمى وارتفعت عنها سيطرة الدولة الغربية وصارت مثلهم وهكذا شأن القوي مع الضعيف فالضعيف مخذول والقوى ظالم متعسف ولله في خلقه شؤون .

***

الغاء العثمانيين الامتيازات واعلان الدستور :

بعد الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨م خفت وطأة القناصل ورعاياهم وبعد مدة الغت الدولة العثمانية الامتيازات الاجنبية واقامت لذلك احتفالات عظيمة وزينت جميع البلاد .

وفي هذا العصر بعد ان وضعت المعاهدات والمواثيق الدولية حدوداً للسفراء ورجال السلك السياسي وقفت كل دولة عند حدها واصبحت الدول في معاملاتها سواسية .

تأثير القبعة على الشرقيين :

من هذه الامتيازات اصبح للسفراء والقناصل حق بأن يعينوا من ابناء البلاد حراساً باسم « قوّاس » يرتدون (السراويل الطويلة مع الدوامر المزركشة بالقصب) ويحملون السيوف والعصي المفضضة وينتخبون من اقوى الفتيان ومن الطبقة المعروفة « بالقبضايات » ولباس رأس القواس قطعا هو الطربوش فالقدماء كانوا يلبسون الطربوش العباسي فوقه العمامة الاغبانية ومع الزمن بدلوه بالطربوش العادي وما زالوا الى اليوم على هذا اللباس .



قواس قنصلاتو انكلتره

واثناء سير القنصل في البلدة في غير الأيام الرسمية يسير القواس امامه والسوط بيده ليفتح له الطريق ويدفع عنه الأذى ولم أر في حياتي من تجرأ على قنصل بأذى اثناء سيرهم في الأسواق واذا ازدحم الطريق وتأخر بعضهم عن فتحه امام القنصل فان القواس يستعمل السوط لتفريق الناس هذا كان قبلا وفي

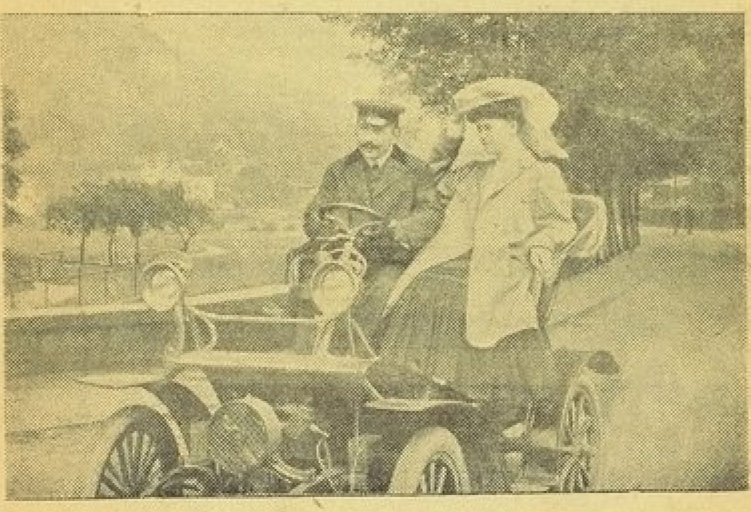
اوائل القرن العشرين ابطلوا هذه العادة ومن ذلك الزمن اصبح القواس رمزاً لقوة الأجنبي وعنوان القناصل اثناء السير واذا ركبوا في العربات يجلس القواس جانب الحوذي ومن الشروط المطلوبة في القواس جمال الوجه وقوة القلب والعضلات وكبر الشارب فلا يؤخذ القواس الا من أجمل الشبان وأقواهم وأشجعهم . ولشدة ما كان يقاسيه اجدادنا وآباؤنا من تسلط الأجنبي ومساعدة الحكومات المحلية له جعل الخوف متأصلا في نفوسهم وانتقل منهم الينا واصبح الخوف من صاحب القبعة عادة ورثناها عنهم ومن طول الأيام التي تمتع الأجنبي فيها بهـــذه الامتيازات استأصلت عوامل الخوف في نفوس الشرقيين واصبحوا ينظرون للغربي نظرة الاحترام ومن عاشر الأفرنج في بلادهم وقضى معهم ولو مدة قصيرة وعرف حقائقهم لاتبقى نظرته اليهم تلك النظرة القديمة وتصبح معاملته لهم كمعاملة الند للند وهانحن اليوم نعيش بهـذه النعمة في بلادنا ادام الله علينا الاستقلال وحفظنا من نوائب الدهر انه سميع مجيب .

***

حديقة الحيوانات :

تركت « القنصلية » وعدت الى الفندق واسترحت قليلا وانا افكر بمعاملة لطيف افندي لأبناء العرب ولما لم يكن لي من غرض في القنصلية قررت ان لاراجع قنصلا تركيا في عمري وخرجت للتفرج على مرسيليا ودرت بعض شوارعها فوجدت اجملها واكثر حركة فيها شارع البورصة وفيه اكثر المسارح وقاعات الملاهي وسألت عن احسن مسرح فدلوني على مسرح اسمه « فاريتيه - variété » وقد دهشت من الحركة في هذا الثغر وجعلت اتفرج على الحوانيت والمخازن وانواع البضائع وحسن تنسيقها في الواجهات ولم اكن اعرف احداً في هذه البلدة ولكن من حسن

حظي اني التقيت برجل من ابناء العرب من الذين رأيتهم في « القنصلية » العثمانية فسألته عن احسن « الفرج » في هذه البلدة فقال جنينة الحيوانات وقال اذا شئت صحبتك اليها . فذهبنا وقضينا فيها ثلاث ساعات رأيت فيها اجناس الحيوانات والطيور والزواحف وغيرها على اختلاف انواعها وسررت جدا من هذه النزهة وعدت الى الأوتيل وتناولت الطعام واسترحت قايلا وخرجت الى شارع البورصة وما زلت انتقل في هذا الشارع وانقل نظري من عربة الى سيارة « وكانت السيارات لم تزل في بدء عهدها » ومن واجهة حانوت الى سيدة متأنقة الى ان دقت الساعة التاسعة توجهت الى التياترو .



السيارات في عام ١٩١١

***

تياترو الفاريته :

هذا التياترو من ارق مسارح مرسيليا ولكنه يأتي بالدرجة الثالثة بعد

مسارح باريس قطعت « البيليت » ودفعت خمس فرنكات وجلست في مكان متوسط واجرة المقعد تبـــدأ من « الفرنك الى الاثني عشر فرنكا » والحساب آنذاك على السعر الذهبي وموقع الفرنك الواحد اما في آخر طابق وهو الرابع واما في آخر الجالسين في الطابق الأول حيث يقف المتفرج طوال الليل على اقدامه .

وفي هذا المسرح « بوفات » يؤمها المتفرجون في اوقات الاستراحة « انتراكت » واللباس عادي وكانت تلك الليلة المقاعد جميعها ملأى والذي فهمته من المسيو جورج نادر في اليوم الثاني ان جميع مسارح مرسيليا دائما تكون ملأى بالمتفرجين واكثرهم من الأغراب الذين يصلون مرسيليا في كل يوم .

***

كراندبال ماسكه :

في الساعة التي نزلت فيها الى مرسيليا وقع نظري على اعلان كبير يعلن عن حفلة راقصة كبرى مقنعة (كراند بال ماسكه) ولم اكن في عمري حضرت حفلة رقص وكنت اقرأ في الروايات عن المراقص المقنعة والسافرة والخيال يتسع لمثل هذه الأبحاث خصوصاً اذا كان قلم الكاتب سيالاً . وكانت نفسي مشوقة لاطفاء الظمأ لرؤية الحفلات الراقصة التي طالما كنا نتغنى بها على السمع . والحفلة موعدها يوم الخميس ٢ آذار ١٩١١ وستقام في مسرح الأوبرا في مرسيليا ، وكنت أينما سرت اجد على الحيطان في كل شارع اعلان الـ (كراندبال) فلم يعد يغيب عن فكري خاطر الاشتراك بهذه الحفلة وقد سألت صاحب الأوتيل عنها ففهمت منه ان لهـا البسة

خاصة اما لباس تنكر واما لباس اسود ولم يكن معي (بذلة) سموكن (١) - smoking) ولااريد شراء (بذلة) جديدة وعلمت انه يوجد محلات خاصة لايجار هذه البذلات فذهبت الى أحدها وصاحبته سيدة نصف ولما رأتني غريباً لاأحسن التكلم وعرفت اني اريد استئجار بذلة لحضور الحفلة اسرعت فأخرجت لي عدة انواع من الألبسة المزركشة التي يلبسها المهرجون في المسارح النقالة قلت لااريد هذا بل اريد (بذلة) سوداء فأحضرت لي المطلوب واتفقنا على خمس فرنكات اجرة البذلة في تلك الليلة ولما كنت أتكلم واراجع الكلمات في القاموس تجمع حولنا بعض عاملات الخياطة اللائي يعملن عندها وعددهن يزيد عن العشرين وجعلن يسمعن كلامي وبأقل من عشر دقائق صرنا كالأخوان وسألتني هل انت ذاهب وحدك ام معك رفيقة ؟ قلت وحدي قالت يوجد آنسة تريد حضور الحفلة وليس لها (كفاليه) يعني رفيق فهل تريد مرافقتها والأجرة لاتزيد شيئاً حيث بالتذكرة الواحدة يدخل الشخص والشخصان وبما انك وحيد فبنفس الأجرة يمكنك اصطحابها ، قلت هل هي لطيفة قالت نعم وسترى وخابرت بالتلفون سيدة اعلمتها انه يوجد طالب زراعة وحيد يريد حضور البال فهل تريدين ان تصحبيه فقبلت مع الشكر وبعد مدة قليلة دخلت سيدة بدينة قل ان يوجد مثلها في مرسيليا فقدمتنا صاحبة المحل الى بعضنا وهي تدعى (المدموازيل مرغريت براك) وصاحبة المحل تدعى « المدام (٢) جانيت روبي » .

---

(١) سيأتي بحث خاص عن اللباس في اوربا

(٢) المدام معناها السيدة يقال لكل امرأة متزوجة مدام والبنات مطلقا يقال لهن « مدموازيل » ويختصرونها فيقولون دموازيل يعني آنسة هذا مااصطلح عليه الغربيون .

معمل الخياطة :

معمل المدام روبي صغير بالنسبة لمصانع الخياطة الكبرى ، فيه نحو عشرين آنسة كل واحدة لها (ماكنة خياطة) والذي يلفت النظر ان جميع البنات كن مشغولات في تصليح الأثواب المأجورة الى الذاهبين للحفلة والمستأجرون ينتظرون في غرفة خارجية وكل منهم يحب ان يأخذ ثوبه قبلا وبينما كانت الآنسة مارغريت ترتدي ثوبها المصنوع خصيصاً لها وهو



لباس التنكر في حفلات الرقص والقناع

من أفخم الأثواب الخاصة (بالمرافع - carnavals) مصنوع بألوان مختلفة يُضحك من النظر اليه زادها سمناً على سمنها وقد تأخرنا عن الساعة التاسعة فجعلت استعجل رفيقتي وهي تتأنى بارتداء ثيابها وفهمت انها تتأخر قصداً حتى تتم صاحبة المحل اعمالها وتذهب معنا وكانت آنستان من الصانعات احضرتا لنفسيهما لباسا خاصا لتلك الليلة وهذا اللباس هو بشكل

بذلات القرون الوسطى وعلى اطراف البذلات اجراس صغيرة من تلك التي توضع في رقاب القطط ، والقبعات كانت على طراز قبعة نابليون وضع على دائرها من هذه الأجراس فكانت البنت اذا تحركت انبعثت منها اصداء ناعمة من تلك الاجراس تلفت النظر ونحو الساعة العاشرة توجهنا بالموكب مشاة من شارع البورص الى الأوبرا واخذت الآنسة مرغريت من احد الاولاد الصغار تذكرة دخول وقالت لي ادفع له ثمانية فرنكات وكان ثمن التذكرة عشر فرنكات اذا اشتراها المرء من (شباك الأوبرا) وقد فهمت ان ادارة الأوبرا تعطي الفقراء تذاكر للبيع تخصم لهم فيها مقداراً من المبلغ المحدد كمساعدة لهم على فقرهم وهذه الحال رأيتها في كثير من المسارح في فرانسا .

وصلنا لساحة الأوبرة واذا بالأضواء تسطع فيها كالشموس والناس مصطفون على أطرافها يتفرجون على الداخلين فمنهم من يأتي بالسيارات ومنهم بالعربات والكثرة مشاة على الأرجل ونحن منهم طبعاً .

وكنا نسير مزدوجين اثنين اثنين في صف مستطيل وقد انضم في صفنا بعض المتفرجين فصرنا (طابوراً) نمشي مشية عسكرية والناس تصفق لنا اذ كنت رفيع القد ارتدي البذلة السوداء وعلى رأسي قبعة سوداء مرتفعة وتسمى (هودفورم) وهي القبعة الرسمية وكانت رفيقتي الآنسة مرغريت بثوبها المنفوخ المخطط آية بالثخانة وقد استلفتنا الأنظار بهذا السير المنتظم المضحك .

ظل التصفيق من المتفرجين الواقفين في استدارة الساحة متواصلا الى ان دخلنا الأوبرا وكان كل واحد منا يضع على وجهه قناعاً مستعاراً يستر فيه القسم الأعلى من الوجه ويسمى بالأفرنسية (masque)

وفي الاوبرا كانت الجوقة الموسيقية داخل المسرح افرادها جالسون على المقاعد والمقاعد بشكل مدرج بحيث يظهر الجميع للنظارة .

وقد رفعت المقاعد من الطابق السفلي واصبحت قاعة للراقصين .

***

قاعة الرقص :

كانت القاعة المعدة للراقصين بديعة جداً يطل عليها المتفرجون من جميع الجهات فالرقص كان يجري في القاعة الأرضية وكانت الألواج ومقاعد جميع الطوابق ملأى بالجالسين واكثرهم مقنع ولا تقع العين الا على ازواج مزدوجة من النساء والرجال فالجالسون في الألواج وجميعهم من الأغنياء مع كل شلة منهم سفط فيه انواع الألعاب الصغيرة كالخشاخيش والزمامير ، والصفافير والمصفقات واوراق الكر ، واوراق الثلج . (confetti) وبالونات مطاط من التي يلعب بها الاولاد يرمون هـذه اللعب بين آونة واخرى فيلتقطها الراقصون ويرمون بها ويرسلون البالونات في جو الصالون بعد نفخها ويصفرون بالصفارات واوراق الكر فهي عبارة عن بكرات من الورق يمسك اللاعب بطرف البكرة ويرميها الى بعد فيكر الورق منها بأشكال مختلفة كل بكرة بلون فيلتف الراقصون بهذا الورق دون ان يحصل لهم منه أذى كما ان ورق الثلج وهو ورق صغير مدور مثل الأوراق التي تبقى في اسفل الثقابة التي تثقب الأوراق لتوضع في الاضبارات وعندما يلقى من الأمكنة العالية بأشكال مختلفة تقع عليه الاضواء (فيرصف) ويكون له لمعان بديع وهو يتساقط فوق الرؤوس ومن كثرة ماالقي من هذا الورق في تلك الليلة منع الراقصين من الرقص لكثرة مااجتمع منه في الأرض حتى اوقف الرقص الى ان جمعوا ماتكدس من الأوراق

وأعادوا الجمع ثلاث مرات . وقد اشتركت موسيقى الجيش بهذه الحفلة وعزفت بعض الألحان الشجية رقصوا عليها بسرور والرقص على انغام الموسيقى النحاسية يهيج الراقصين اكثر من الحان الموسيقى الوترية التي عادت بعد انتهاء الموسيقى العسكرية .



جوقة موسيقية افرنسية

رقصة الكادريل :

من أجمل الرقصات التي رأيتها رقصة تسمى الكادريل يمسك الراقصون أيدي بعضهم فيصبحون حلقة ويرقصون بخطوات موزونة ويدورون في القاعة والراقصون يجب ان يكونوا من الجنسين الخشن والناعم على التوالي وفي هذه الرقصة تجري مداعبات لطيفة عندما تشتد الرقصة فأصحاب الروح الخفيفة يأتون بحركات تضحك الحاضرين والمرء في مثل هذه الحفلات يحسب نفسه مقصراً اذا كان بامكانه اضحاك الناس ولم يفعل .

وبما اني لم أكُ أعرف الرقص فلم اشترك في اي رقصة بل كنت اسير بين النظارة والمتفرجين وارجع الى المكان الذي جلسنا فيه حين دخولنا وقد وضعت كل سيدة من اللاتي كنا معنا حقيبة يدها وبرامج الحفلة على مقاعدهن وبذلك حفظن المقاعد فكنت اسير وارجع الى المكان وهو في الطابق الثالث واجلس قليلا للأستراحة ثم ادور في المقاصير والماشي فأرى الناس كالطيور المزدوجة كل اثنين منها على غصن يتناجيان وانا وحيد اسير بمفردي انتظر انتهاء رفقائي من الرقص لنجتمع .

***

مرغريت ترقص :

من أبدع ماجرى في تلك الليلة ان رفيقتي مارغريت طلبت مني ان ارقص فاعتذرت فاصرت متعجبة من امتناعي قلت السبب الوحيد هو اني لاأعرف الرقص فنظرت الي بدهشة متعجبة قائلة « تيه ن » وهي كلمة تعجب يقولها الافرنسيون اذا فاجأهم خبر غير منتظر .

ولما اكدت لها الامر وفهمت الحقيقة مني بعد صعوبة بالتفهيم لعجزي باللغة قالت اذاً اسمح لي ان اجد لي مراقصاً يراقصني قلت تفضلي فقامت وبعد بضع دقائق واذا بالضجة والتصفيق ينبعثان من جميع الجهات والناس جميعهم ينظرون الى جهة واحدة واذ بالمدموازيل مرغريت ترقص مع رجل بدين فكانا أضخم راقصين في تلك الحفلة وقل ان يُرى مثلها بهذه الضخامة لابحفلة مرسيليا بل في الدنيا على ماأظن ، وكانت دقائق لطيفة سرّ لها جميع الحضور وبعد انتهاء الرقصة صعدت مع راقصها الى ان اوصلها الى عندنا فجلست وهي تعبة تنفخ كالبقرة وتمسح العرق المتصبب من جبينها ، وانحنى الرجل البدين مودعاً وادار ظهره للذهاب من عندها وقمت بسرعة

واخذت مروحتها وفتحتها ووقفت على مقعد في جانبها وجعلت اهوّي لها وهي ثخينة ضخمة وانارفيع « ممروت » وهكذا ضج الناس بالتصفيق وقضينا سهرة من ألطف السهرات وكنت آسفاً لعدم تمكني من الرقص تلك الليلة.

***

الرقص :

الرقص والموسيقى عنصران تأسسا على الوزن ولهذا فقد عاشا معاً منذ عرفا ولا اريد ان ابحث عن تاريخ الرقص بل سأذكر الأنواع التي كانت مستعملة في تلك الأيام . وانواع الرقص كثيرة : التاريخي ، الديني المسرحي ، التمثيلي ، « رقص القصور الملكية — باله دوكور » الرقص الشعبي ، الجمعيات ويقال له رقص الصالونات وانواعه كثيرة والتي كانت منتشرة تلك الايام هي « البولكا » مازوركا ، كادريل ؛ فالس » وبعضها يستعمل حتى الآن كالفالس مثلا وسأرجىء الكلام في هـــذا البحث الى الأبحاث القادمة .

***

الوداع :

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل جعل الناس ينصرفون الى بيوتهم وقد تعب رفاقي من الرقص فعزمنا على الذهاب وعرفوا اني مسافر هـــذا الصباح الى مونت بيليه فعزموا على مرافقتي الى المحطة وبعد ان بدلنا لباس السهرة ذهبنا الى مطعم قريب من الفندق تناولنا فيه شيئاً من الطعام وأحضرت حقائبي وفي الساعة الخامسة كنا في المحطة وقد بقي لحركة القطار ربع ساعة وضعت حقائبي فيها في احدى العربات ولما صفر « الكمساري » ودعتهم وبكت السيدات فابكينني وأحسست كأني اودع اسرتي كما اني

لحظت انهن كأنهن يودعن قريباً لهن وهذا من خلق الأفرنسيين في بلادهم فبقدر مارأيت من شعبهم نساء ورجالاً من العطف والنبل بقدر مارأيت من مستعمريهم نساء ورجالا من الفظاظة والغلظة ، وفي الأبحاث الآتية سيطلع القارىء على حوادث كثيرة تثبت أقوالي في الحالتين .

سار بنا القطار وانا اشير اليهم بمنديلي وهن يشرن لي ، الى ان غبن عن عيني ووصلت الى مونت بيلية قرب العصر يوم الجمعة في ١٩١١/٣/٣.

مونت بيلية :

وصلت مونبيليه وكان بانتظاري صبحي بك الحسيبي احد طلاب المدرسة الزراعية وكنت اعلمته من مرسيليا عن ساعة وصولي وبدلالته قضيت الليلة الأولى في احد الفنادق وفي اليوم الثاني نقلني الى بانسيون عند سيدة عجوز ليس في الدار غيرها « سامحه الله على هذه الاستفادة » .

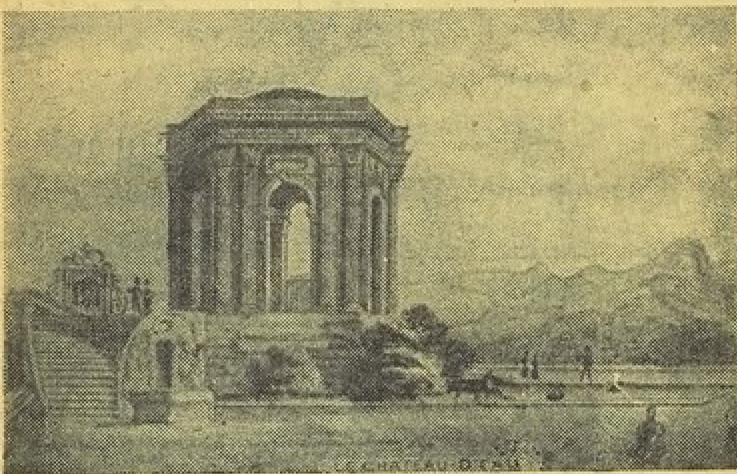
وبلدة مونت بيليه واقعة في جنوبي فرانسا وهي مركز مقاطعة الهيرول تبعد عن باريس ٧٥٢ كيلو متراً نفوسها كانت تقرب من الثمانين الفاً وتعد اول بلدة للعلوم في فرانسا فيها معاهد كثيرة ، معهد للآداب وآخر للعلوم وللصيدلة وللطب ويقال ان بناية المعهد الطبي هي من بقايا آثار العرب الذين احتلوا هذه المدينة عندما احتلوا اسبانيا وفيها من المعاهد ايضا معهد للصناعة وآخر للتجارة ، وفيها مركز جمعية الطب والجراحة ومجمع علمي تأسس سنة ١٨٤٧.

مياهها العذبة تأتيها من قرية « سان كليمان » والمياه تمر في قناة فوق قناطر كقناطر المياه في حماة . وهي التي ترفعها اليها النواعير وفيها موقع بديع يسمى البيرو وهو من اجمل باحات المدن في اقصاه قصر قديم مبني في القرن السادس عشر يدعى « شاتودو » يقع في الجهة الغربية للمدينة .

وفيها متحف صغير وبالرغم عن صغره بالنسبة الى غيره من المتاحف فان فيه من الآثار اشياء قديمة ثمينة جداً لا يوجد لها نظير تأسس سنة ١٨٢٥.

وفي ساحة المدينة مسرح يسمى « كراندتياتر » اي التياترو الكبير ، وبالرغم عن اسمه فهو مسرح صغير بالنسبة للمسارح الكبرى في فرانسا .

***



« شاتو دو » في مونت بيلية

المدارس الزراعية في فرانسا :

كان في فرانسا ثلاث مدارس زراعية كبرى في مونت بيليه وفي كرينيون وفي رين وهذه المدارس من أعظم مدارس العالم الزراعية ، يخرج الطالب منها بشهادة مهندس زراعي ويوجد غيرها مدارس زراعية من الدرجة الثانية تسمى « فيرم ايكول » سيأتي البحث عنها.

مدرسة مونت بيليه الزراعية :

هي من المدارس الكبرى في فرانسا ذات ثلاثة صفوف تدرس جميع الدروس الزراعية الآتية : الزراعة العامة ، النباتات ، الآلات الزراعية ، المروج والمراعي ، الحيوانات وتربيتها ، الدواجن ، الكروم ، عمل الخمور بجميع انواعها ، الألبان بجميع أنواعها ، طبقات الارض ، الري ، مصارف المياه ، الأمراض النباتية ، لمحة مختصرة عن أمراض الحيوانات وهذه اقل من دروس البيطرة ، الصنائع الزراعية وغير ذلك من الدروس اللازمة لمهندس الزراعة .

***

انتقالي الى غرفة :

في اليوم الثاني من وصولي الى مونت بيليه انتقلت الى غرفة استأجرها لي صديقي الحسيبي بأربعين فرنكاً مع الطعام لمدة خمسة عشر يوما عند سيدة تدعى مدام (آلبس دوموندا)

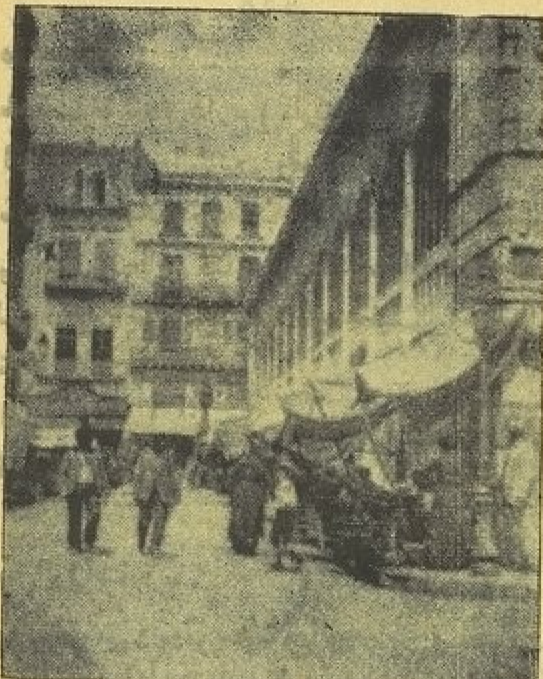
تسكن في شارع « دوله ربيريه rue de l'Herberié » وهي ارملة موظف توفي قريباً جاءت معه بحسب وظيفته من بلدتها نيس وكانت تنتقل معه من مكان الى مكان حسب اقتضاء الوظيفة ولا ادري وظيفته ولكن الذي يظهر من أثاث الدار انه كان في وظيفة لائقة .

***

البانسيون :

البانسيون هو عبارة عن غرفة مفروشة للايجار يستأجرها الطالب بمبلغ يتفق عليه مع صاحبة المنزل « والبانسيونات » قسمان عادي « وبانسيون دوفاميل » عائلي ، والعادي هو استئجار الغرفة بفرشها دون

طعام ، اما العائلي فهو استئجار الغرفة مع الطعام والغسيل وجميع مايحتاج الانسان فيكون في غرفة كأنه في داره وهذه البانسيونات كثيرة في فرانسا وأكثر أصحابها من النساء الأرامل اللائي يفقدن ازواجهن وهذه



البانسيون الذي كنت اسكن فيه X

البانسيونات منها مافيه الراحة ومنها مافيه العذاب وهذا حسب طبائع صاحبة الدار وسأذكر بعض الحوادث عن اخلاق اصحاب البانسيونات التي سكنتها في ليون وباريس .

أما المدام آيس هذه فكانت عجوزاً طيبة حسنة الأخلاق عاملتني

معاملة الأم لولدها . اولادها الاربعة موظفون كل منهم في ناحية وليس معها في الدار غير ابنها الكبير وهو رجل في نواحي الاربعين من عمره طيب العنصر حسن التربية قضيت معها أحسن وقت مدة اقامتي عندها.

***

قهوة دوليبسلاناد :

قهوة لطيفة نظيفة تقع فيشارع (ماركاديه) ، كنا نجتمع فيها اوقات الفراغ مع الطلاب العرب والعثمانيين وقد تعرفت الى شاب تركي يدعى جواد بك من ألطف شبان الترك كان يحصل الزراعة مع الحسيبي وشاب دمشقي يدعى ميشيل النحاس كان يحصل الهندسة الصناعية وشاب مصري ينادونه « السي مكيد » يعني السيد عبد المجيد خفيف الروح جداً كان يخفف عنا آلام الغربة .

وهذه البلدة هادئة ساكنة بعكس باريس وليتني تمكنت من اتمام دروسي فيها ولكن ما الفائدة وليس كل مايتمنى المرء يدركه .

***

المدرسة الزراعية :

في اليوم الثالث من وصولي ذهبت مع السيد الحسيبي الى المدرسة وقابلت المدير وطلبت قيدي بين الطلاب ولما كلمني ووجدني مقصراً باللغة قال لا يمكنه قبولي اذا لم احسن التكلم والقراءة بالافرنسية وعليه طلب مني ان اداوم على مدرسة ابتدائية لتعلم اللغة الافرنسية ومن العبث قبول مثلي في الصفوف الابتدائية في تلك البلاد ولما عرفت انه لا يمكنني الدوام في هذه المدرسة جعلت أبحث عن مدرسة متوسطة يقبلونني فيها الى ان احسن القراءة والتكلم بالافرنسية فأرشدوني الى مدرسة زراعية في ليون تدعى (ايكول فيرم)

فعزمت على السفر الى ليون وقبل انتهاء الخمسة عشر يوماً التي استأجرت فيها الدار اعلمت المدام آليس بالأمر وافهمتها عذري واضطراري للسفر فقبلت العذر وأرجعت لي الفرق عن الأيام السبعة الباقية لأني قضيت في مونت يليه اسبوعاً في المراجعة ولما انقطع أملي غادرتها الى ليون لدخول مدرستها وركبت القطار باكراً وخرج لوداعي السيد الحسيبي والمدام آليس وابنها و « السي مكيد » ورأيت من هذه السيدة في هذا الأسبوع عطف الوالدة ووداع الأم للولد فكنا نبكي كلنا عند الوداع ولا ازال اذكر ما أصابني من



صبحي بك الحسيبي وجواد بك الترك

التأثر البليغ من هذا الوداع والأنسان اخو الأنسان أينما كان وليت أطماع السياسيين تزول من الرؤوس ليعيش البشر اخواناً على وجه هذه البسيطة ولكن ما العمل وأطماع الطامعين تزعج الخلق على مر السنين .

في القطار :

القطر في فرانسا منظمة بالنسبة الى القطار الذي نعرفه في سوريا . وهي : « رابيد سريع » لايقف الا على المحطات الكبرى واكسبرس هو اقل سرعة من السريع ولا يقف الا على المحطات الكبرى والمتوسطة والقطار العادي يقف على جميع المحطات والأجرة تختلف باختلاف القطر ويجتمع الأنسان في القطار بأشخاص مختلفين من جميع الأمم وعلى المسافر ان يحترم جميع الركاب مهما كانت طبقتهم وسنهم وعند الصعود والهبوط من والى القطار يجب التأني بالمسير وعدم دفع الناس للوصول الى المقعد بسرعة والأحسن للمسافر في القطار ان يصل قبل ربع ساعة من قيام القطار الى المحطة ليتمم نواقصه ويجد مقعده بسهولة وراحة فلا يعكر على غيره بالدفع و « الدفش » ومن عادات الأوربيين في القطار احناء الرأس بالسلام عند الدخول والخروج من عربات القطر خصوصاً اذا كان في العربة سيدات .

من أقبح العادات قلع الحذاء اثناء السفر واذا كانت رائحة أرجل المسافر كريهة فانه يؤذي الركاب ويسلب راحتهم وهـــذا لايجوز مطلقاً ان يكون .

***

الكلاب في القطار :

ومن المعيب اخذ الكلاب في القطروار كابها في عربات الركاب وبامكان المسافر ان يشحن كلبه بقفص في « الباكاج » عربةالشحن فيضع له طعامه والماء ويستلمه في محطة البلدة الذاهب اليها . وكثير من الحكومات الأوربية تمنع ركوب الكلاب مع المسافرين في القطار .

***

التدخين ممنوع :

والتدخين ممنوع في القطر ولكن بعضهم يدخن رغم المنع اذا كانت نوافذ العربة مفتوحة. خصوصاً في الشتاء فان الدخان يؤذي الركاب وعلى الأكثر السيدات منهم ولذا على المسافر مراعاة هذه العادة والاستئذان من المسافرين بالتدخين قبل البدء فيه واذا رجاه أحدهم بعدم التدخين يجب ان يمتنع لأن بعض الأمراض يضرها دخان السكاير خصوصاً مرض الربو «آسم» وفي بعض القطارات يمنع التدخين ومن اراد التدخين فليخرج الى الممشى وبمناسبة التدخين في القطار :

***

القت الغليون :

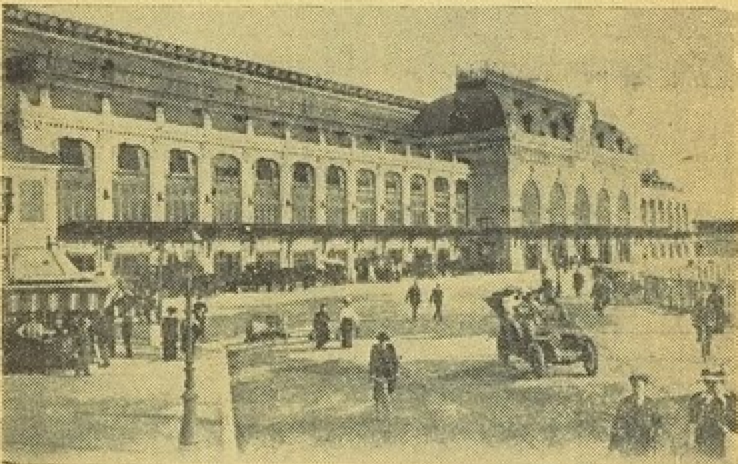
ذكروا ان سيدة في قطار طلبت من احد الركاب عدم ازعاجها بالتدخين وكان بيده غليون يدخن فيه فلم يلتفت الى احتجاجها وأعادت الطلب بشدة فلم يأبه لها فأخذت الغليون من يده وألقته من نافذة القطار وهو في سيره فلم يغضب الرجل لكنه مد يده وأخذ كلب السيدة الصغير والقاه من النافذة فقامت قيامة صاحبته وجاء شرطي القطار واجتمع الركاب من كل صوب وكانت المحطة قريبة وما كاد القطار يقف وينزل الشرطي والمتخاصمين الى رصيف المحطة لأجراء التحقيق حتى رأوا الكلب الصغير يركض نحو المحطة وفي فمه الغليون فأخذت السيدة كلبها والرجل اخذ غليونه و « قامو الدق مانعاً واحدة بواحدة » .

***

وصولي الى ليون :

في الساعة الثانية بعد نصف الليل وصل القطار الى ليون و كان البرد

قارساً جداً والرياح الباردة تسلخ الوجوه ، ليس معي ترجمان ولا أعرف اللغة ولم أصادف أحداً أعرفه وتقدم مني رجل لايحمل اي (شارة) علامة على عضده أو في صدره كالحمالين أو الادلاء الرسميين وسألني عما اريد قلت اريد فندقاً رخيص الأجرة « بون مارشه » قال تفضل وكنت وضعت الحقيبة وصندوق ادوات الطعام عند حارس الثياب « كار ديروب » فسلمته الحقيبة والصندوق ودفعت الأجرة ثلاث « سوات — السو واحد من عشرين من الفرنك » عن كل وحدة ليحفظها لي الى الغد واخذت



محطة بروتو في ليون

وصلا مهره بختم الغرفة وسرت مع الدليل الى خارج المحطة فوجدت عربات الأجرة منتظرة الركاب واكثرها بحصان واحد وسرنا على الأقدام وانا احمل بيدي علبة القبعات وكنت اشتريت من الاسكندرية ثلاث قبعات احداها « ميلون — نصف رسمية » وهي تشبه بطيخ الشمام والثانية قبعة

عادية والثالثة للسفر « كسكيت » ووصلنا الى اوتيل جانب المحطة والمسافة بينهما لاتزيد عن المائة وخمسين متراً واخرجت فرنكا لأعطيه اياه فلم يقبل وطلب عشرة فرنكات مع ان اجرة الغرفة في الفندق فرنكان ، قلت لماذا العشرة قال اجرتي وجعل يعلي صوته ولم اقدر ان اتفاهم معه وكلما اشار له البواب بالسكوت زاد بالصراخ حتى أقلق سكان الفندق ولما رأى البواب ان الرجل « فاجر » دفعني واياه الى خارج الفندق والقى بعلبة القبعات الى الخارج واغلق الباب وبقيت على الرصيف والهواء العاصف يسفع الوجوه وعندما وقعت علبة القبعات على الأرض فتحت وخرجت منها القبعات ودارت القبعة « الميلون » على حرفها والشارع منحدر وكانت شدة الهواء تدفع القبعة فلم اتمكن من اللحاق بها الا بعدجهد جهيد والرجل يركض خلفي ، اخذت القبعة بعدما امتلأت بالوحول والتفت الى الرجل وقلت واخيراً ماذا تريد قال اجرتي قلت إما ان تأخذ فرنكاً واما تفضل الى مخفر الشرطة واذا ابيت فليس لك من دواء الا هذي العصا فاضطرب الرجل عند سماعه كلمة الشرطة وقبل بالفرنك أخذه ومضى يشتمني بكلمات لم افهمها وكانت شتائمه لي بصوت عال فتركته يهذي ومشيت نحو مقهى قريب وانا اضحك وجلست في المقهي استريح وطلع الصبح ، وسألت صاحب المقهى عن محلات ابناء العرب في ليون فقال اذهب الى الجامعة وبقيت في المقهى الى الساعة الثامنة ونصف ثم ذهبت الى الجامعة وجلست انتظر خروج الطلاب الى الساعة الحادية عشرة واذ بشبان خارجين وبينهم شاب اسمر طويل فتقدمت منه وقلت السلام عليكم فرد السلام وتقدم مني وصافحني بشوق وحرارة والتف حولنا بضعة طلاب جميعهم مصريون وتعارفنا « على الواقف » وقالوا هيا الى المقهى وكان بالقرب من الجامعة مقهى يدعى مقهى السلام .

ملهى السلام :

وما كدت اخبرهم خبري حتى تكاثر الطلاب المصريون واصبحوا مقدار عشرة شبان وكلما جاء واحد يعرفني به الشاب الأول واسمه السي فؤاد وعرفني بشاب يدعى محمود فخري وهو ابن احد اغنياء القاهرة جاء لدرس الحقوق في ليون دعاني لتناول الغداء وتلطف بأن يكون دليلي وكثرت سؤالات هؤلاء الشبان عن حالة البلاد العثمانية والحرية والدستور وكلهم متعطش لسماع اخبار العثمانيين وجميعهم من أنصارهم يكرهون الانكليز وكانت الروح الوطنية تتوثب في صدور هؤلاء الشبان المصريون الذين يستفسرون عن الانقلاب العثماني بكل تلهف ويسمعون كلامي بكل شوق وارتياح وبعد ان قضينا ساعة في الحديث تفرق الطلاب ووعدني فخري بانه سيجد لي في الغد « بانسيوناً » عند اسرة كريمة ليوفر علي شيئاً من اجرة الفنادق .

ثم اخذني الى فندق قريب بت فيه ليلتي وفي ظهر اليوم الثاني جاءني حسب الوعد واخذني الى دار سيدة تدعى مدام ماري شوبان تسكن في شارع « بوبوكو » وهي آية في الشناعة وابنتها صورة طبق الاصل عن والدتها . استأجرت الغرفة بثمانين فرنكا مع الطعام والغسيل في الشهر مشترطا تركها بعد خمسة عشر يوما اذا لم اجد فيها الراحة ودفعت مقدماً عشرين فرنكا على الحساب

***

فوم ايكول :

هذه المدرسة من المدارس المتوسطة تعلم الطالب الزراعة العملية مع قسم بسيط من العلوم النظرية ومعناها مدرسة المزرعة ذهبت اليها مع

المدام بلانش كومبو وصديقي فخري محمود وكان المدير بانتظارنا بناء على وعد مع المدام بالتلفون . وبعد التعارف طلبت دخولي في المدرسة وقدمت له شهادة المدرسة الاعدادية فقال ارجو ان تترجمها وتصدقها من قنصلكم في ليون ودعانا لزيارة المدرسة فصحبناه ودار بنا على جميع الصفوف وعلى الاصطبل ومحل الدواجن وحديقة المدرسة وارانا الآلات الزراعية الميكانيكية الحديثة واحتفل بنا جداً ووعدني بقبولي بعد ترجمة الشهادة وفي هذا اليوم بعد رجوعنا الى ليون زرت القنصل وقدمت له الشهادة طالباً ترجمتها والتصديق على الترجمة وكان القنصل العثماني قنصلا فخريا من تجار ليون الافرنسيين ولما لم يكن لديه ترجمان يحسن الترجمة طلب مني ترجمتها ليصدق عليها وذهبت ابحث عمن يحسن الترجمة وكنت كتبت كتابا الى احمد قدري احد طلاب الطب في باريز من ابناء دمشق اعلمه بقضيتي وطلبت منه ترجمة الشهادة وتصديقها من السفارة فاخذت الجواب بعد يومين يطلبني فيه الى باريز ليدخلني في مدرسة كرينيون لان فيها مدرسة كمدرسة ليون واكون بقرب الطلاب السوريين فعزمت على السفر الى باريز وبدأت اقطع علائقي من ليون وقبل الرحيل منهـا لا بد من ذكر شيء عما رأيته فيها

***

مدينة ليون :

ثالث مدينة في فرانسا وهي مركز اقليم الرون يمر فيها نهران « الرون والساون » نفوسها تقرب من النصف مليون « آنذاك » فيها جامعة كبيرة يدرس فيها الفروع الآتية : الحقوق ، الطب ، الصيدلة ، العلوم ، الادب ، بيطرة ، وفيها مدرسة عسكريه للطب . وفيها معاهد علمية كثيرة منها معهد،

الرياضة ، للتجارة العليا ، للكيمياء الصناعية ، للحياكة ومدرسة اعدادية للاستعمار تسمى « Ecol De preparation colonial » .

اسست سنة ١٨٩٩ وفيها معهد للفنون الجميلة ، ومعهد هندسة وفيها معهد موسيقى « قونسروا توار » اسس سنة ١٨٧٢ اسسه المسيو « مونكن Mongin » رئيس الأوركسترا في الأوبرا وهذا المعهد مربوط « بكونسرواتور باريز » لهذا المعهد بناية لا بأس بها فيها ١٢ قاعة للدرس منها قاعتان كبيرتان للاجتماعات تتسع احداها لأكثر من ثلاثمائة شخص ، وفي ليون ١٢ مدرسة تجهيزية ثلاثة للذكور واربعة للأناث واربعة مختلطة كما ان فيها مدرسة صناعية الميكانيك اكثر هذه المدارس رأيتها من الخارج وبعضها زرتها مع محمود فخري ولا يمكنني ان ابحث عنها بالتفصيل لأني لم ادرس احوالها بدقة والذي يمكنني ان اقوله ان رؤية هـــذه المدارس والمعاهد وانكباب الطلاب على تحصيل العلوم فيها جعل في نفسي شيئاً يدفعني لأتمام التحصيل لأخدم امتي المسكينة وكم كان الخيال يتجسم في رأسي فأرى نفسي ساعياً لفتح المدارس والمعاهد في بلادي مجداً في دفع الطلاب للتحصيل للنهوض ببلادي والسير بها في موكب الحضارة واني احمد الله بأني لم امت حتى رأيت بأم عيني أمثال تلك المعاهد والمدارس في دمشق تقوم بدلاً عن « الحجوات والكتاتيب » .

***

المدام شوبان :

صاحبة « البانسيون » بقيت معها خمسة عشر يوما ولا بد لي من ذكر كلمة عنها .

افرنسية كالافرنسيات العريقات « بالنروزة » وبالرغم عن اللطف الذي

تتظاهر به. فاقل كلمة كافية لان « تطلع خلقها »، قلت اني كنت اشترطت ان اكون حراً بعد الاسبوعين اذا لم اجد في دارها راحتي ولما اخبرتها اني مسافر الى باريس قامت قيامتها والمصيبة عجزت عن تفهيمها مرادي لعدم معرفتي اللغة الافرنسية وراحت تعاتبني وتمن علي بما قامت به نحوي من الخدمات خارجا عن الشرط وهو اني سألتها في يوم عن محل لرفو الثياب وأريتها طرف سترتي وقد اصابها العث واكل منهـا بمقدار ظفر انسان فقالت لالزوم للرفـاء انا ارفوها لك وبالفعل اصلحت السترة « الله يستر عليها » وشكرتها على ذلك وعندما عرفت اني سأغادر الدار قالت الم ترتح عندي ألم يكن الطعام جيداً ونظيفا ألم ألم . . . ألم ارفو لك السترة دون مقابل واضع الخيط من عندي قلت بلى وقد شكرتك آنذاك قالت اذا لماذا انت ذاهب وجعلت ابنتها « تنخروز » اكثر من امها حتى انها من شدة تأثرها بكت وكادت تبكيني ولم اقنعها باني مسافر الى باريس حتى اتيت بفخري يشهد بذلك وبعد ان اقسم بشرفه صدقتاه وغادرت الدار على ستر وسلامة .

***

اقتصاد الأفرنسيات :

كان في غرفتي مصباحان اشعلتهما في الليلة الاولى واذ بالسيدة تنبهني الى لزوم الاقتصاد بالنور. وذلك باطفاء المصباح الواحد اذا لم يكن عندي ضيوف لان المصباح الواحد يكفيني للمطالعة واشعال المصباحين يعد تبذيراً واسرافا فاجبتها الى طلبها وسرت حسب اشارتها الى ان غادرت الدار .

***

صحن بفرنك :

كانت المدام شوبان تشعل في المطبخ مصباحا غازيا وفي احد الايام رأيتها تفتل اوراقا من الجرائد وتجعلها رفيعة على شكل السهام هذه الاوراق تضعها في المطبخ باداة كالكنانة معلقة جانب المصباح فاذا ما اعتم الوقت اخذت ورقة وشعلتها من « الطباخ البريموس » وانارت فيها المصباح فقلت لها لماذا تعذبين نفسك بهذا العمل والكبريت رخيص . فضحكت وقالت يا ولدي انا فارغة الآن والجرائد لم يعد لي حاجة بها فاذا استفدت من هذه الاوراق بعض الفرنكات في السنة بامكاني ان اشتري بشكل فرنك صحنا او كاسا من البلور افيد منها في الدار اوفرهما من ثمن الكبريت وما دام الطباخ مشعلا فلماذا الاسراف في الكبريت وكبريته فوق كبريته يجتمع منها علبة بل علب فسكت وقلت ويل المسرفين وفكرت بهذا الحادث عندما احتل الأفرنسيون سوريا وقلت أي وقعة سوداء مع امة نساؤها توفر الكبريتة لتربح منها فرنكا في السنة .

***

مرافع نصف الصوم :

صدف وجودي في ليون في منتصف الصوم عند الكاثوليك فحضرت المرافع في ليون ويسمونها (كافالكاد دو ميكاريم) . يفطرون بها ويستبيحون الخلاعة ويكثرون من عمل المساخر وقد ضربوا الخيام واقاموا اسواقا في الباحات والطرق التي حول بنايات الجامعة ونقلت البضائع على انواعها لهذه الخيام كما انهم اقاموا سرادقات كثيرة من سرادق « السيركات » (١) عرضوا

(١) « السيرك » ملعب كبير متنقل يقام تحت الخيام يتنقل به اللاعبون من بلدة الى بلدة .

فيها كثيراً من الألعاب « البهلوانية » والتمثيلية والمضحكة والكركوز الافرنجي المسمى marionnette وهي دمى من اللعب الصغيرة على اشكال مختلفة لها في رأسها خيوط من مطاط يمسك بها رجل جالس في اعلى مسرح صغير يساعده مساعد او اثنين حسب الألعاب التي يقوم بها فيمثل رواية وجميعها مضحكة ويسيّر الدمى بالخيطان وفي صدر المسرح الصغير ستارة



منظر من مناظر ليون

سوداء والأضواء مطفأة والمسرح مضـاء بمصابيح خفيفة بحيث لا يرى المتفرج الخيوط حينما يحركها اللاعب فيظن ان الدمى تسير من نفسها وهذه اللعبة يحبها الأولاد والروايات التي تمثل ليس فيها كلمة بذيئة بخلاف العاب الكركوز عندنا .

***

خيمة المولوية :

رأيت في المرفع خيمة كبيرة عرفت انها مخصوصة لفتل الدراويش فيها دفوف مرفوعة عن الارض مقدار نصف متر جعلوا حولهـــا دائرة من الحبال تفصل المتفرجين عن اللاعبين ووضعوا على باب الخيمة اعلانات كبيرة فيها رسوم الدراويش « بكلاهاتهم » (١) الطويلة واجرة الدخول « ثلاثة سوات » والـو واحد من عشرين من الفرنك .

دخلت لأرى هذه « الفرجة » وكان الفصل يتجدد كل ساعتين ورأيت في الداخل جماعة اخلاط يقلدون الدراويش بالفتلة والطقوس التي تقام في التكايا في المواسم الدينية وجوقة موسيقية مركبة من ثلاثة نايات وكمان وقانون ونقرزان والدراويش اخلاط من ترك وعرب من اسلام ومسيحيين جماعة مرتزقة جعلوا هذا العمل ويسميه الدراويش « مقابلة » باباً للرزق وقد تأثرت جداً من هـذا المنظر لأن القائمين به كانوا يتخذونه هزءاً لأضحاك الناس عليهم والدولة العثمانية لاتحتج على هذا العمل وكيف تحتج وقنصلها في ليون افرنسي مسيحي فتأمل .

***

الأسود :

من أهم الألعاب اسود ستة من اكبر الأسود يلاعبها مروض شاب فتركض بين يديه كما ترقص الكلاب بين يدي الصياد وفي يده سوط طويل مثل سوط الجوذي « العربجي » يضرب الأسد فيه ضرباً موجعاً فيذل ويطيع المروّض ويجري الحركات المطلوبة منه بصعوده على مقـاعد

« ١ » الكلاه كلمة فارسية معناها القلنسوة كانوا قديماً يتعممون فوقها واخيراً بقيت اسماً لقلنسوة دراويش المولوية وسياتي بحثها .

خشبية خاصة لوقوفه على الارجل ووضع الأيدي على حديد الأقفاص والخلاصة انها فرجة مخيفة يقف المتفرج ماسكاً قلبه بيده خوفاً على المروض الواقف بين ستة اسود في قفص صغير .

***

رقص البراغيث :

الغربيون لايتركون ناحية يمكنهم الاستفادة منها ولهم روح مطاطلة بتدريب وتعليم الحيوانات الكبير منها والصغير ومن اغرب مارأيته في المرفع رجل يرقّص البراغيث ولولم اربعيني رقصها لما صدقت الخبر . رجل امامه صندوق صغير فيه لوحة من البلور في آخرها ابواب صغيرة تحت اقواس تفتح فيخرج منها عدة براغيث داخلها نتف من الشعر والصوف يقف المتفرج امام الصندوق بعد دفع الاجرة وهي فرنك عن المتفرج وكلما صار عدد المتفرجين اكثر من عشرة يفتح الرجل الابواب ويضرب باصبعه امام الابواب عدة ضربات ويبدأ بالتزمير بزمّيرة فم فيخرج بضعة براغيث الى الباحة وتبدأ ، بالوثب والنط مادام الرجل يزمر ومتى قطع التزمير وقفت البراغيث تستريح « انتراكت » ثم يعود الى التزمير ويضرب بأصبعه على الزجاج فتعود البراغيث للرقص والنط واخيراً يقطـــع التزمير فتقف البراغيث ويفتح ويدق بأصبعه على الزجاج فتثب وتهرع الى مقرهـــا وتغلق الابواب ولاتفتح الا بعد ساعة على الاقل اذا اجتمع العدد الكافي من المتفرجين وتخرج البراغيث كالسابق وهكذا دواليك وهذا مما يحار به الفكر .

***

محمود فخري ميوب :

في احدى ليالي المرفع كنت اسير انا وفخري ونظراً للازدحام

تأخر عني بالسير وبما انه قصير النظر كان يضع على عينيه نظارات « منمّرة » وكانت « موضة النظّارات » ان تكون بلا حمالات ترتكز على الآذان بل كان لها سلسلة تعلق بقبة الرداء وبينما انا اسير سمعت صوت فخري يناديني فعدت لارى واذا برجل بدين يضرب فخري على رأسه ويقول « فوتر شاپو فوتر شاپو » يعني قبعتك قبعتك وفخري مخبول بين يدي الافرنسي ومناظره في الارض فعدت بسرعة ودخلت بينهما مستفسراً عن سبب الشجار ففهمت ان فخري صدم الافرنجي دون انتباه وطلب « البردون » بالفم فقط دون ان يرفع القبعة وكانت الصدمة شديدة فما كان من الافرنسي الا ان جعل يضرب فخري على قبعته ويقول قبعتك حتى غطى بها عينيه ورمى مناظره في الارض ففرقت بينهما ولكن الافرنجي زادها « بالبهورة » فصفعته صفعة رنت لها جوانب المكان ورفعت العصا الجلد وهددته بانه اذا اتى باقل حركة فسوف يرى مالايسره فكسر الشر ومضى بحاله واتممنا الليلة على خير .

***

السفر الى شالون سورسون :

صحوت في الساعة الخامسة من يوم الاربعاء الواقع / ٢٩ اذار / ١٩١١ وكنت قطعت جميع علائق وحضّرت حوائجي وجاء محمود فخري مع المدام بلانش كومو وفؤاد المصري وخرجنا جميعاً الى محطة « بروتو »

وصحبتنا المدام شوبان مع ابنتها وودعتهم وبكتا وبكيت ووصلت الى (شالون سورسون) في الساعة العاشرة فوجدت السادة الامير مصطفى الشهابي وعز الدين علم الدين وعبد الغني الشهبندر وهم شبان البعثة السورية الاولى التي ارسلت الى فرانسا سنة ١٩١٠ بانتظاري في المحطة لاني كنت اعلمتهم قبلا عن يوم سفري فجاؤوا المحطة وعلى رؤوسهم الطرابيش ولما رأيتهم قلت

« الكسكيت » قبعة السفر ووضعت الطربوش ودخلنا شالون على هـــذه الصورة فكنا مطمح الانظار وذهبنا الى الدار التي يقطنها الرفاق واسترحنا قليلاثم خرجنا للتفرج على البلدة واول ماارونى اياه مدرستهم ثم متحفاً صغيراً فيه بعض حوائج الأمير عبـــد القادر الجزائري منهـا سرج حصانه مع رِكْبه وغير ذلك من اشيائه الخاصة التي حصل عليهـــا الافرنسيون في الحروب التي حصلت بينهما « رسم الامير عبد القادر جاء في الجزء الاول بالخطأ حيث كان المراد وضع رسم ولده الامير علي فليرجع اليه من شاء من القراء » وشالون سورسون مدينة صغيرة تقع على بعد ٢٨٠ كيلو متراً تقريبـاً من باريس



البعثة الدمشقية الى فرانسا سنة ١٩١٠ من اليمين عبد الغني الشهندر الأمير مصطفى الشهابي الواقف عز الدين علم الدين

مدرستها الزراعية في الضواحي تقع على بعد ١١ كيلو متراً من المدينة ومدرستها تدعى :

المدرســة التطبيقيـة للزراعة والكروم (Ecole pratique d'agriculture et de vidicultur واراضي البلدة تخرج احسن الخمور سكانها ٢٥٠٠٠ الفا فيهامعامل حديد، وفخار ، وزجاجات الخمر وبراميل « كفوف » قفافيز ، زيت، الخ.. ولما حان وقت القطار اوصلني الرفاق الى المحطة ودعتهم ومشى القطار الى ديجون ومنها الى باريس ووصلتها بعد منتصف الليل وكان في انتظاري الدكتور احمد قدري الذي كتبت اليه اعلمه عن الساعة التي اصل فيها ولم نكن نعرف بعضنا الا بالأسم وهو قريب خطيبتي لأمها ولأجل ان يعرفني من بين الركاب اخبرته اني سأضع في صدر ردائي وردة حمراء تفرقني عن الناس وبالفعل لم يكد ينظر الوردة الحمراء، حتى عرفني فأخذني الى اوتيل « كوجاس » في « كارتيه لاتان — الحي اللاتيني » وهو مركز الطلبة وفي اليوم الثاني تعرفت الى عوني عبد الهادي ورفيق التميمي وهما من شبان فلسطين اللامعين وقضيت بضعة ايام اســعى فيها مع قدري للدخول الى مدرســة كرينيون الزراعية وبينما نحن جادون في امر الدخول الى المدرسة وترجمــة الشهادة واذ بكتاب من نسيب بك البكري جواباً على كتاب مني كنت شوقته فيه للمجيء الى فرنسا ولو فراراً اذا لم يوافق والده ووقع الكتاب بيد عطا باشا البكري الذي طار عقله على ولده ووضعه تحت المراقبة الشديدة حتى كاد ان يزهق انفاسه .

وقد اعلمني بكتابه ان والدي اقسم يميناً مغلظة بعد عودته الى دمشق انه لن يرسل اليّ غرشاً واحــداً ولو بلغه اني في حالة التلف واوصاني بان اغير فكري واستعيض عن التحصيل بسياحة صغيرة اطلع فيها على بلاد الغرب وادرس احوالها واعود لأجل ان يزوجوني ويفرحوا

بي على رأيهم وبما اني اعرف والدي وعناده وليس لي من يرسل مايكفيني مؤونة التحصيل ولما لم اكن اعرف لغة القوم ولايمكنني العمل لتحصيل مصروفي عزمت على العودة الى دمشق وقررت ان ابدل التحصيل بالسياحة وكان من الشبان الذين تعرفت اليهم ثلاثة اطباء اتموا تحصيلهم في باريس ومرادهم الرجوع فاتفقت معهم على ان نصطحب في السفر ونعود الى الآستانة بالسكة الحديدية الشرقية ومنها الى بيروت في البحر وهكذا كان والاطباء هم المرحوم الطبيب الامير شريف الشهابي والطبيب الامير عز الدين الشهابي والطبيب احمد راتب وسأذكر سفرنا بالتفصيل .



الدكتور احمد قدري

***

البانسيون في باريس :

في اليوم الرابع من وصولي انتقلت الى بانسيون « دوفاميل » عند سيدة بولونية ارملة تدعى « المدام كدوكو فيشكا » لها ولد صغير في السادسة من

عمره تعيش وابنها من واردها من هذا البانسيون الواقع في ٣ ، رودوليستر اباد ، وعدد السكان ١٨ طالباً وطالبه اكثرهم من البولونيين منهم الدكتور قدري والداعي لله .

***

معلمة الافرنسي :

وكانت صاحبة البانسيون اتفقت مع سيدة افرنسية تسمى المدام (كوبير) ان تتناول الغذاء مع الطلاب لتصحح لهم الكلام اثناء الطعام وتعطي الدروس الافرنسية لمن شاء منهم مقابل فرنكين في الساعة ، وقد اتفقت معها على اخذ درس ساعة في كل يوم وبالفعل بقيت تدرسني مدة اقامتي في باريس وقد افدت منها كثيراً في هذه المدة القليلة التي قضيتها معها اذ بالطريقة التي كانت تتبعها في التعليم وهي طريقة « برليتس » أصبحت أتمكن من فهم مايقال وتفهيم المرام بالأشياء الضرورية اللازمة .

***

شبان العرب في باريس :

مع الأسف لم يكن في باريس من ابناء العرب من الطلاب الا عدد قليل بالنسبة الى غيرهم من الأمم ، والذين تعرفت بهم غير من ذكرت سابقاً السادة : محمد المحمصاني ، عبد الغني العريسي من بيروت ، محمد رستم حيدر من بعلبك وتوفيق الناطور ، وتوفيق فايد ، هؤلاء الذين كنت اجتمع اليهم طوال المدة التي بقيتها في باريس واجتماعنا على الاكثر كان في غرفة عوني عبد الهادي الذي قضى مدة طويلة في تحصيل الحقوق وتعليمه على حساب والده وهؤلاء الشبان كان بعضهم مرسلا على حساب الدولة كما سيأتي :

البعثات العلمية :

قبل الانقلاب العثماني كانت البعثات العلمية الى اوروبا في حكم العدم الا بعض الضباط الذين كانوا يرسلون الى المانيا وكان بعض احرار الترك يفرون الى اوربا من الاستبداد الحميدي ولكن الحكومة الاتحادية في سنة ١٩١٠ أجرت فحصاً لخرجي التجهيز في الآستانة والذين نجحوا فيه ارسلوهم الى فرانسا ولما كانت اللغة الافرنسية هي المنتشرة اكثر من غيرها ارسل جميع افراد البعثة الى فرانسا والاكثرية الساحقة كانت من الاتراك والذين دخلوا الفحص ونجحوا من ابناء العرب هم :

محمد رستم حيدر ، رفيق التميمي فدخلا في مدرسة « سان لويس » الثانوية وحصلا على شهادتها واتما تحصيلها العالي في جامعة الصوربون .

وقد ارسلت الجمعيات الوطنية في بيروت السادة محمد المحمصاني وتوفيق الناطور وعبد الغني العريسي وتوفيق فايد وهؤلاء من الذين وضعوا اساس جمعية عربية الفتاة التي سيأتي ذكرها فيما بعد .

***

متاحف باريس :

المتحف « musée » توضع فيه الآثار القديمة والعاديات التي تعثر عليها الحكومة من الحفريات وفي باريس عدة متاحف اهمها متحف اللوفر ومتحف فرسايل وكلاهما من قصور ملوك فرانسا والمتحف العسكري « الانفاليد » وفيه قبر وقبعة الامبراطور نابليون وبعض الحوائج التي يستعملها وفي هذا المتحف انواع اللباس العسكري على اختلاف العصور وفيه كثير من الرايات التي اخذتها الجيوش الافرنسية في الحروب المتعددة في جميع

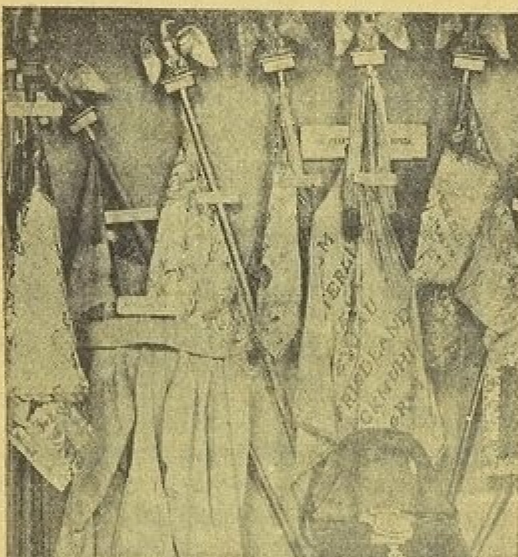
العصور ونماذج من لباس الفرسان والمشاة مع جميع انواع الاسلحة التي استعملها الجيش الافرنسي في مختلف الأزمان .

***

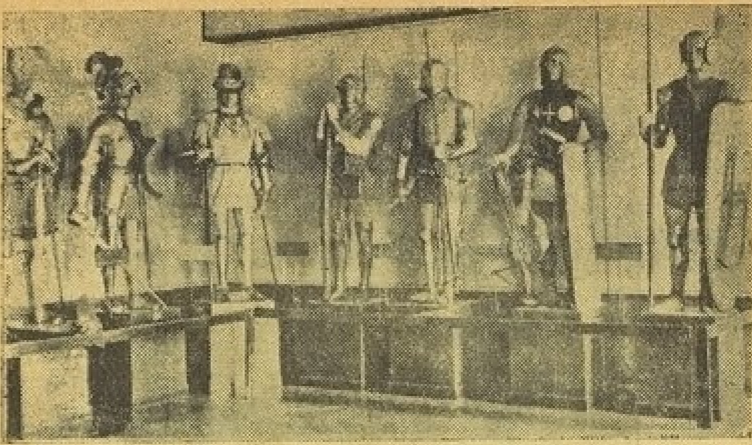
مايجلب النظر في باريس :

باريس جنة الله في الارض فيها من كل فاكهة زوجان لايطلب الانسان فيها شيئا الا ويجده .

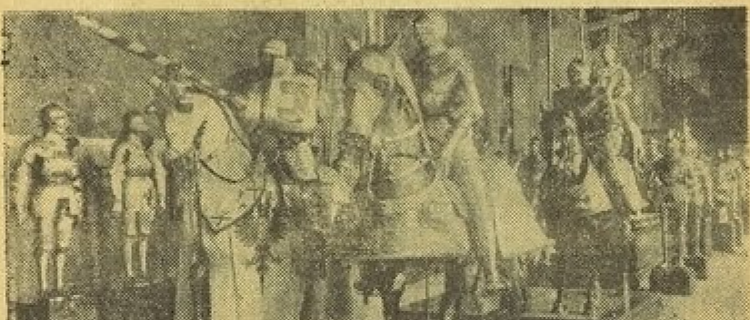
هي دار العلم والعرفان كما انها دار الدعارة والطغيان وهي كعبة السياح ومنزل الطلاب ، مرتع الجهال ومقصد المحتال مثل البحر الداخل اليها مفقود والخارج منها مولود وبالرغم عن ملايين الليرات التي تدخلها بواسطة السياح فان اكثرية اهلها



تيمة نابليون ورايات الجيش الأفرنسي وغدارات الامبراطور

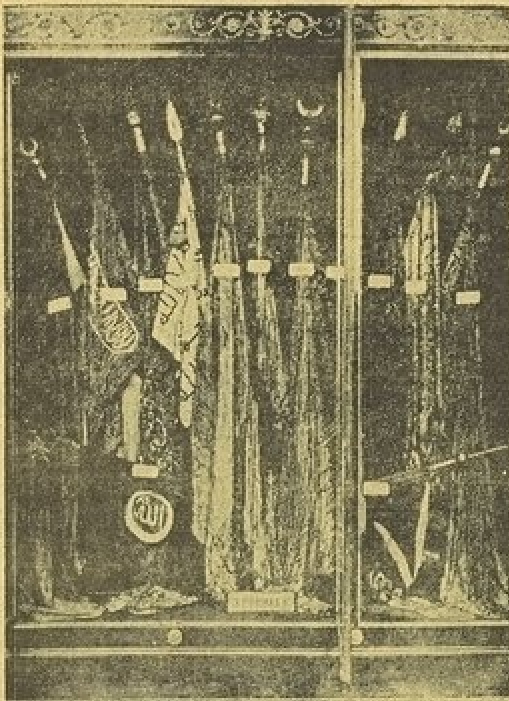


لباس الجند المحارب في متحف الانفاليدمن المشاة



متحف الانفاليد العسكري لباس الجنود المحاربين من الفرسان

فقراء تجمع المتناقضـــات وتطيب لكل انسان فيها الحياة واهم مايستلفت النظر فيها من البنايات العظيمة (تورايفل) البرج الحديدي احد عجائب الدنيا واهم مايلفت النظر ايضاً كثرة الطلاب الاجانب منهم التشيكيون



بعض الأعلام التي كسبها الأفرنسيون في حروبهم

وعددهم يزيد عن الخمسين الف طالب وطالبة يأتي من بعدهم البولونيون وعددهم يزيد عن الاربعين الفاً وبعدهم يأتي اليابانيون ويتراوح عدد طلابهم

بين العشرين والخمسة والعشرين الفاً والغريب في امرهم اني لم أر طالباً يابانياً واحداً في غير ايام الآحاد (يمطمط) في المحلات العامة وكان من المصريين مقدار مائة وخمسين طالباً « والمصريون فيهم البركة بالمطمطة » ولم ار طالبة عربية واحدة بين الوف الطالبات الاجنبيات اما الطلاب العثمانيون فكان عددهم ثلاثون طالباً ليس بينهم طالبة وهذه البعثة العثمانية الاولى (طالبان) منها عربيان وثلاثة ارمن ورومي واحد وخمسة وعشرون طالباً من الاتراك وكان من ابناء العرب غير هؤلاء بعض الطلاب من بعثة الجمعية الخيرية البيروتية والبعض على حساب اهليهم وهؤلاء جميعهم لا يزيد عددهم عن الخمسة عشر طالباً سيأتي ذكرهم فيما بعد وهذا مما يزيد الحسرة في نفسي لتأخر أمتي في ارسال البعثات ومن

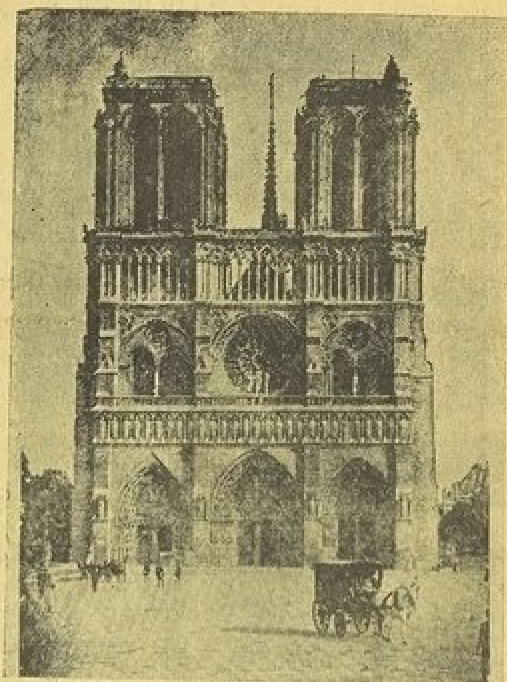


برج ايفل : باريز

قرأ تاريخ نهضة مصر الحديثة ايام الخديوي محمد علي يرى ان البعثات التي ارسلها الى اوربا كان لها الباع الطويل في نهضة مصر وعمرانها .

ومن أجمل المباني التي تستلفت النظر في باريس مسرح الاوبرا

وكنيسة (نوتردام) وكنيسة (مادلين) وساحة (الكونكورد) التي فيها المسلة الفرعونية التي اخذت من مصر وتياترو الشاتله وتياترو ساره برنار الممثلة الشهيرة التي لم أر تمثيلها لسوء حظي مع انهـــا كانت على



كنيسة نوتردام دوباريس

قيد الحياة والحاصل لايمكن الواصف ان يصف باريس من ناحية او نواح خاصة بل كل مافيها حسن جميل من واجب كل من يقدر على السياحة من الأغنياء ان يزورها ولو مرة في العمر .

انبعاث الحركة العربية :

في سنة ١٩١١ تأسست جمعية عربية الفتاة في باريس وقبل البحث في تأسيسها ورجالها وأعمالها لابد لي من الرجوع بالقارىء الى ماقبل الانقلاب العثماني والتبسط قليلا بالبحث عن العوامل التي ايقظت في العرب روح الوطنية وكنت ذكرت في الجزء الأول شيئاً عن الانقلاب العثماني وعوامله ولكن البحث كان مقتضباً جداً ولذا رأيت ان امهد للابحاث الآتية بكلمة لابد منها ليقف الشبان الذين لايعرفون عن العهد الحميدي الا الاسم وليعرف الحقيقة من يطالع المذكرات من الشعوب المسلمة خصوصاً المصريين الذين لايزالون يلوموننا لقيامنا على الدولة العثمانية ومحاربتنا اياها مع ان الأتراك اخواننا في الدين فأقول :

***

الدور الحميدي :

السلطان عبد الحميد الذي تبوأ عرش بني عثمان ثلاثة وثلاثين سنة لايكفي لذكر دوره عشرات الأجزاء من هذه المذكرات وفي كتب التاريخ مافيه الكفاية عن ذلك ولكن الذي يهمني ان يعرفه القراء ما كانت عليه حالة البلاد في عهد هذا السلطان وشيء من الأعمال التي قام بها بعد اعتلائه العرش العثماني عقيب خلع عمه السلطان عبد العزيز واخيه السلطان مراد وقد أخلف بوعده لأحرار الترك وعطل الدستور للمرة الأولى قبل ان تمر سنة على اعلانه ونفى شيخ الأحرار مدحت باشا الى الطائف وقد قيل انه ارسل من قتله فيها وفر الكثيرون من احرار الأتراك الى اوربا خوفا منه وفي اوربا اصدروا الجرائد ونشروا النشرات ضد العهد الحميدي. ساعدهم بهذه الدعايات الدول الأوربية من اصحاب المطامع في الولايات العثمانية تلك

الدول التي كانت تنتظر تقسيم تركة « الرجل المريض » ويعنون به الدولة العثمانية وانسلاخ بعض الولايات العثمانية عن جسم الدولة أثار الرأي العام ضد السلطان عبد الحميد الذي اصبح اسمه مقروناً بالظلم والاستبداد مما ساعدهم اخيراً على القضاء عليه باعلان الدستور للمرة الثانية ثم بخلعه من العرش العثماني.

والسلطان عبد الحميد قضى أيام حكمه بالخوف والهلع والأكثار من تعيين الجواسيس حتى قالوا ان الجواسيس في آخر ايامه كان عددهم يزيد عن الثلاثين الفا في الدولة العثمانية وجميع هؤلاء كانوا يتناولون الرواتب من خزينة الدولة ويقومون بالتجسس داخل البلاد العثمانية وخارجها وقد كمت الأفواه وكسرت الاقلام وحكمت البلاد بطريقة استبدادية هلعت لها القلوب.. والتف حوله بعض شياطين الانس من جميع الاجناس والعناصر وجعلوا يزينون له البطش بالاحرار ويفترون على الناس ومن له خصم يقدم بحقه التقارير الكاذبة مما يسبب له ولعائلته الشقاء وقد ذكر بعض المؤرخين ان اكثر من ظلموا في ايامه وسجنوا كانوا من الابرياء وذهبوا ضحية اخصامهم الذين وشوا بهم او ضحية لفاقدي الاخلاق من الجواسيس الذين يخترعون الوشايات ليحوزوا على رضا السلطان هذا ما كان يتهم به اخصام العهد.

***

الجرائد في ذاك العهد

اما الجرائد في عهده فكانت عبارة عن صحف تجارية ليس لها هم الا كسب الدراهم وتضليل الامة بالاخبار الكاذبة التي ترضي جلالة السلطان وتكيل الثناء بالكيل الوافي له ولوزرائه وكبار رجال الدولة بحيث لم يكن احد من الناس يقرأ في جريدة واحدة اي انتقاد لأصغر موظف ولا ترى في الجرائد الا المدح والثناء على السلطان واعماله المجيدة وتحبيذ اعمال

الموظفين بحق وبغير حق وشكر « صاحب الشوكة » يعني السلطان بمناسبة وبغير مناسبة والجريدةالتي تعارض او تنتقد ولو بالاشارة فجزاؤها الاغلاق وسجن صاحبها ومحرريها .

وليت بالامكان ذكر بعض ما كانت تكتبه الجرائد من مدح للسلطان عقيب انسلاخ كثير من البلاد عن جسم الدولة في زمن السلطان عبد الحميد خان الثاني ! ولكن المجال غير مساعد والبلاد العثمانية التي سلخت عن جسم الدولة في عهده هي :

١ — ولايتا الفلاخ والبغدان استقلتا اي بعد تولي عبد الحميد بسنتين وسميتا دولة رومانيا سنة ١٨٧٨ .

٢ — ولايات سلسترة وودين ونيش استقلت سنة ١٨٧٨ ايضا وسميت دولة بلغاريا .

٣ — ولاية الروم ايلي الشرقية وهي جنوبي بلغاريا .

٤ — الجبل الاسود « قره طاغ » استقل سنة ١٨٧٨ .

٥ — الصرب استقلت ١٨٧٨ .

٦ — قبرص احتلها الانكليز ١٨٧٨ ،

٧ — ولايات اردهان والقارص وباطوم وارمينيا دخلت جميعها في حوزة الروس .

٨ — تونس الغرب دخلت تحت سلطة فرانسا سنة ١٨٨١ .

٩ — تساليا اضيفت الى بلاد اليونان سنة ١٨٨١ .

١٠ — مصر احتلها الانكليز سنة ١٨٨٢ .

١١ — السودان فتحها الانكليز سنة ١٨٨١ كل هذا جرى بعد انكسار العثمانيين في الحروب الروسية العثمانية سنة ١٨٧٨ فكان لذلك صدىً عظيم في

جميع البلاد واتخذ الاحرار الاتراك من ذلك سلاحاً لمحاربة السلطان عبد الحميد وحكوماته .

كل هذا كان يجري والعرب في سبات عميق قـــد خدّرهم اسم الدين واطاعة اوامر الخليفة التي امر بها الله في كتابه العزيز واطيعوا الله والرسول واولى الامر منكم . بهـذه العقلية كان الترك يحكمون العرب ولما اعلن الدستور واستولى شبان الاتراك على الحكم وهم رجال جمعية الاتحاد والترقي ومدّنو اقدامهم فيه كما ذكرنا سابقاً قلبوا ظهر المجن لجميع العناصر غير التركية من المسلمين وغير المسلمين ومن ذلك التاريخ قامت العناصر العثمانية بتشكيل الجمعيات السرية والعلنية والنوادي العنصرية وكان المسيحيون منذ القديم لهم تشكيلات سرية تساعدهم الدول الاوربية وتحميهم وبعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ظهروا للوجود وابانوا تشكيلاتهم القديمة وبالرغم عن اظهارهم الفرح والسرور باعلان الدستور فانهم كانوا يكيدون له سراً .

***

الجمعيات العربية :

في وسط هذا التيار تنبه أحرار العرب من الشبان واحسوا بالخطر المحدق بالبلاد العثمانية جميعها وحفظا لكيان العربي بدأوا بتشكيل الجمعيات السرية والعلنية في مختلف الولايات ، فأول جمعيـــة عربية تأسست بعد الدستور هي :

***

جمعية الاخاء العربي :

أسسها في الآستانة كبار رجال الحكومة من ابناء العرب واجتمع

فيها عدد منهم من مختلف الأقطار من سوريا والعراق وطرابلس الغرب وغيرها والمؤسسون هم صادق باشا المؤيد من دمشق قومسير الدولة العثمانية في امارة البلغار وايالة الروم ايلي الشرقي وشكري بك الحسيني القدس مستشار وزارة المعارف .


صادق باشا المؤيد

وعارف بك الماردين عضو في مجلس شوراء الدولة واخيراً والي سورية اصله من ماردين تزوج احدى « البرنسسات » الأميرات في مصر وعاش فيها مدة طويلة وقد قابلته وهو والٍ في دمشق كما سيجيء . يتكلم باللهجة المصرية ومنهم يوسف شتوان بك احد المقربين للسلطان الذي انتخب نائبا عن متصرفية بني غازي في افريقيا وهو النائب الوحيد الذي فسخ المجلس النيابي انتخابه وقام الدكتور احمد قدري ويوسف مخيبر حيدر مع بعض شبان العرب بمظاهرة دخلوا فيها الى المجلس واجبروا الاتحاديين على تصديق نيابته .

ومنهم نخلة بك المطران من وجوه بعلبك ومنهم المرحوم شفيق بك المؤيد

وهو من ابرز الشخصيات العربية واكثرها حركة ومن الذين شنقهم الأتراك ايام الحرب كما سيجيء.

***

عربية الفتاة :

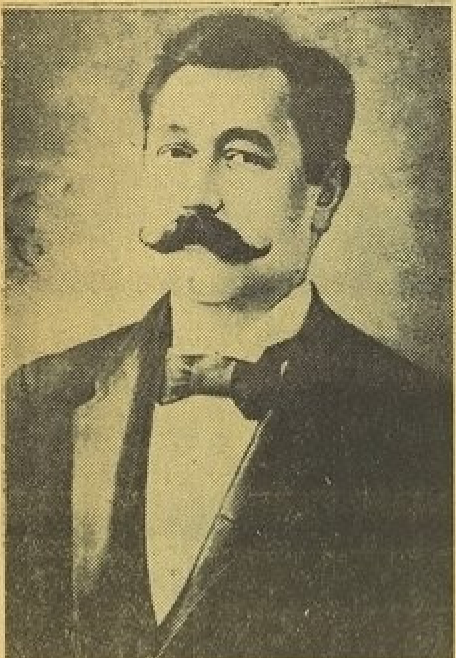
هي الجمعية العربية السرية التي تأسست سنة ١٩١١ في باريس والتي لعبت دوراً مهماً من ابتداء الحرب العامة الى ان انحلت بعد خروج جلالة الملك فيصل بن الحسين من دمشق وسأذكر الآن ماعرفته عن تأسيسها والمؤسسين وسوف اذكر فيما بعد بعض الأعمال التي قامت بها قبل وبعد تأسيس الحكومة العربية الفيصلية في دمشق حتى ايام انحلال الجمعية.



عارف بك الماردين

كل شيء اساسه الفكرة وفكرة تأسيس الجمعية العربية المسماة بالفتاة قامت برؤوس ثلاثة من شباننا في الآستانة وهم عوني عبد الهادي من نابلس (فلسطين) والدكتور احمد قدري من دمشق (سوريا) ومحمد رستم حيدر من بعلبك

ان هؤلاء الشبان كانوا ايام الانقلاب العثماني في الآستانة وقد تحمسوا للحرية حسبما تقتضيه سن الشباب فكانوا يتتبعون كل مظاهرة تقوم في الآستانة ويستمعون الى الخطباء الذين يثيرون الشعور بخطاباتهم وقد أثر فيهم تحامل الشبان الأتراك على كبار موظفي العرب كأحمد عزت باشا العابد الكاتب الثاني في «المابين»(١) والشيخ ابو الهدى الصيادي ونجيب باشا ملحمة وغيرهم ومع ان الرجعيين من موظفي الدولة كان اكثرهم من الأتراك فكان الهجوم على ابناء العرب ٩٠٪ اكثر من غيرهم من موظفي الترك الذين لم يكن يذكر اسمهم الا عرضاً.



شفيق بك المؤيد

أثر هذا التهجم على هؤلاء الشبان وجعلوا يفكرون بطريقة للخلاص من الأتراك فخطر لهم خاطر تأسيس جمعية مثل جمعية «جون تورك»

(١) المابين الدائرة الخاصة التي يجتمع فيها الوزراء في القصر الملكي العثماني ومن ثم اصبحت اسما لمراي الحكومة ومقراً للوزراء.

تركيا الفتاة وهي التي قلبوا اسمها بعد الانقلاب الى جمعية الاتحاد والترقي ومما يجب ان يذكر ان اول يوم مكر وا فيه بهــذه الجمعية يوم كانوا يمشون فيه تظاهرة كبرى في حي (ابك اوغلي) وهو اكبر حي في الآستانة يسكنه الأجانب يظن المار فيه انه في شارع اوربي سمعوا من الضابط سري بك احد الخطباء حملة شعواء على احمد عزت باشا العابد ووصفهم بالخونة فتحركت العاطفة العربية بهؤلاء الشبان وصاروا كلما قرأوا شيئاً عن رجال العرب في الجرائد او رأوا رسـومهم « الكاريكاتورية » التي لم يعتادوا عليها وتحتها كلمة عرب ومعناها عند الترك « الكلب الأسود » يحرقون الأرم



هكذا كانت الجرائد التركية ترسم رجالنا وتكتب تحت الرسم خائن عرب عزت

وبدأوا يفكرون بلزوم تأسيس جمعية عربية تحفظ كيان العرب ولا يستبعد ان تكون الغيرة من شبان الاتراك كان لها اعظم الاثر ايضاً في تشكيل الجمعية المذكورة ومما يجب ذكره ان العوامل التي دفعتهم للسرعة بتأسيس الجمعية هي الدعايات التي حركت النعرة التركية فصارت تزداد يوماً فيوماً حتى اصبح جميع

الاتراك نساء ورجالاً، شيوخاً واطفالاً في الشوارع والمساجد في الأزقة والمدارس. لاينظرون الى العرب خصوصا الموظفين منهم الا بعين الأزدراء والاحتقار ولم يمض على هذا الانقلاب مدة حتى رفع الاتحاديون البرقع عن وجوههم وكشفوا عن ماتكنه ضمائرهم نحو العرب وغيرهم من العناصر العثمانية وجعلوا ينفثون في قومهم سم العنصرية التركية ويحبذون سياسة التتريك ويحضون الناس على تتريك جميع العناصر التي تتألف منها الدولة العثمانية وتبدلت كلمات عثمان وعثمانية بكلمات ترك وتركية !!!

كل هذا كان يجري في حين كان الخطباء لايفتأون ينادون بالحرية والاتحاد والمساواة والاخاء والعدالة حتى اصبحت هذه الجمل «كليشيه» ترددها جميع الأفواه ولكنها كانت عبارة عن اقوال فقط واعمال رجال الحكومة على خلافها تماما وقد ظهر هذا للجميع وذلك باستيلاء الاتراك على جميع مراكز الحكم وابعاد غير عناصر عنها والهيمنة على كل الشؤون في الدولة واسسوا لحزب الاتحاد والترقي فروعاً في جميع الولايات وجعلوا ادارتها في ايدي الموظفين الاتراك الذين عينوهم حديثاً واكثرهم من الشبان الأغرار الذين يعجزون حتى عن ادارة انفسهم واصبح اصغر موظف اتحادي يعامل الوالي القديم معاملة الآمر المأمور الصغير والتف حولهم الناس وجعلوا يدخلون في الجمعية افواجاً افواجاً ولم يقبلوا بينهم الا كل من كانوا يتوخون من ورائه فائدة مادية اومعنوية خصوصاً الذين بيدهم قوة انتخابية واكثر الذين التفوا حولهم وانتسبوا اليهم المرتزقة من وجوه البلاد ورؤساء الأحياء الذين يتماشون من ابواب الحكام حتى ان الزعماء الحقيقيين للبلاد اضطروا للخضوع ومداراة الأتحاديين خوفاً على مصالحهم وصارت نوادي الحزب في الآستانة والملحقات مركز المراجعة

في جميع الأمور وقد ضعفت قوة الحكومة واستغنى كثير من الموظفين القدماء من اصحاب الكرامة عن وظائفهم حرصاً على كراماتهم واعظم ناحية ظهرت فيها نواياهم في المدارس العالية لما كان يظهر من الشبان الأتراك من التهور في المجادلات التي تحصل بين الطلاب ويفرضها سن الشباب وكم من مرة جرى النزاع بين شبان العنصرين التركي والعربي عقيب جدال سياسي في الصفوف وباحات المدارس .

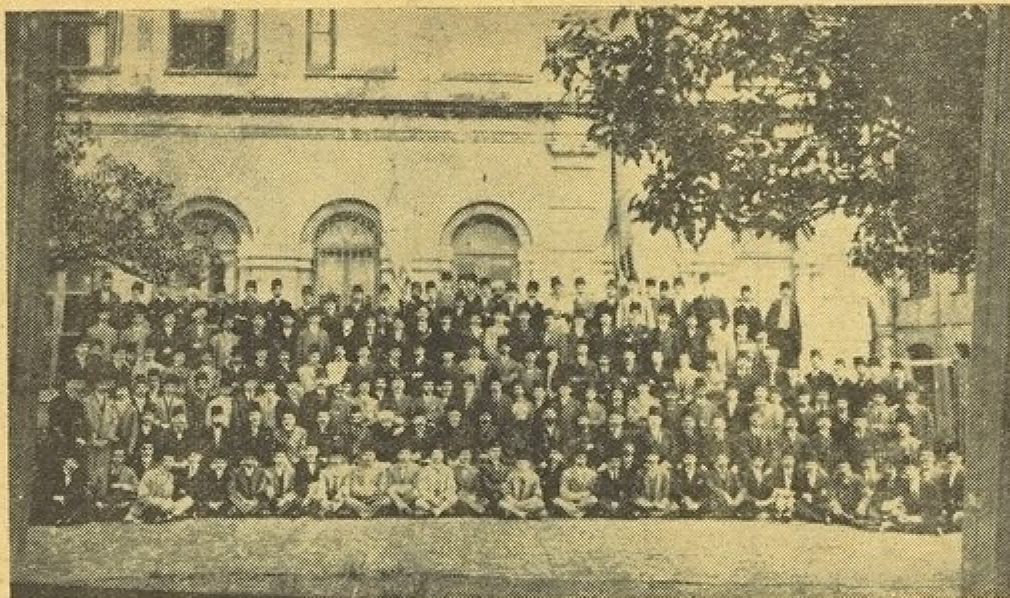
ومن الحوادث التي كان لها تأثيرها على الأتراك هو اجتماع ابناء العرب من متخرجي الصف الأخير في مدرسة الملكية ١٩١١ وسحب صورة



اول صورة لطلاب العرب من خريجي المدرسة الملكية الشاهانية انفردوا برسم خاص

فوتوغرافية لهم وهم اول صف دخل في هذه المدرسة بعـد الانقلاب وهم السادة : ١ ـ توفيق الطرابلسي : طرابلس الشـام ٢ ـمسلم العطار ـ دمشق ٣ نسيب الايوبي ـ دمشق ٤ مظفر البغـــدادي ـ العراق ٥ عبد الستار السندروسي ـ طرابلس الشـام ٦ زكي التميمي ـ نابلس فلسطين ٧ عبد القادر عوض ـ دمشق ٨ توفيق الحيـاني حلب ٩ نسيب النابلسي دمشق ١٠ عاكف الجابري حلب ١١ عارف الخطيب حمـاة ١٢ عبد المالك الجيرودي جيرود دمشق ١٣ عمر زكي الأفيوني طرابلس الشام ١٤ معين الماضي حيفا ـ فلسطين ١٥ ثابت السويدي ـ العراق بغداد . بعد اخذ هذا الرسم علت الضجة بين الطلاب وبعد اخذ ورد ومنعاً للشر واظهاراً لحسن نية العرب نحو الأتراك اخذ الرسم الآتي لعموم الطلاب المأذونين في ذلك العام مع اساتذتهم وبذلك خففوا شيئاً من حدة زملائهم شبان الأتراك الذين استلموا بعد مدة اكبر مراكز الدولة مما زاد في حقد مستنيري العرب خصوصاً رفقاءهم في المدرسة الملكية وعند وصولي الى الآستانة سأذكر بالتفصيل حركة شبان العرب والأعمال التي قاموا بها وتأسيس المنتدى الأدبي واخبار بقية الجمعيات العربية ولنرجع الآن الى مارأيته في باريس :

***



مأذونوا المدرسة الملكية الشاهانية سنة ١٩١١م مع المعلمين

ندره المطران :

قلت سابقاً اني قررت العودة الى البلاد ولذا اصبح من الضروري ان أطلع على كل مايمكنني الاطلاعُ عليه من بلاد الغرب ولما كانت السياحة تحتاج الى النقود وكانت نقودي قليلة جعلت اقتصد بقدر الأمكان ولا تخرج القطعة من يدي الا « مسحاء » . وقد جلست يوماً في قهوة السلام « كافه دولابه » استريح من طول المسيرعلى الأقدام وبما ان والدي لم يجاوبني على اي كتاب ارسلته اليه اضطررت ان اكتب كتابا الى صديقه المرحوم كمال افندي المهايني اخبره فيه عن عزمي على الرجوع الى دمشق ، وجلست جانبي سيدة جعلت تنظر الى الكتابة العربية وتتعجب وسألتني ماهذه الكتابة قلت عربية « فجفلت » وقالت انت عرب قلت نعم فتعجبت ولم تصدق وطلبت مني ان اقدم لها شيئا من المشروب فلم اقبل قالت انك لم تفهم مااريد قلت بلى فهمت انك تريدين ان تشربي المشروب وانا ادفع الثمن قالت نعم قلت لااريد قالت لماذا قلت لأني تلميذ فقير فضحكت وتركتني واذ برجل يسألني بالعربي انت من الشام ياافندي قلت نعم قال ابن المهايني وقد رأى عنوان الكتاب قلت لا بل انا ابن البارودي قال ماذا يكون محمود بك لك قلت والدي فقام وصافحني وقال هذا اخي وكنت رأيت ندره بك مرة في دمشق في حفلة اقامها الأكراد لرجال الاتحاد والترقي في بدء ايام الانقلاب خطب فيها ندره بك وأجاد وحاز اعجاب الحاضرين مما ابقى في ذاكرتي اثراً طيباً له ولما عرفته قلت أولست حضرتك ندره بك المطران قال نعم من أين عرفتني قلت رأيتك مرة تخطب في دمشق وبقيت صورتك في ذاكرتي وانا معجب بك فدعاني للجلوس معه وقدمني الى شاب

افرنسي يفوتني اسمه بصفته رئيس تحرير جريدة « الجون ترك » التي كانت تصدر في باريس وفهم مني قضيتي وقال سأكتب الى والدك بلزوم ابقائك في باريس للتحصيل فقلت سبق السيف العذل وانا على اهبة السفر قال انا ايضاً معجب بك وبصراحتك وهذه المرة الاولى التي ارى فيها شاباً يمتنع عن اجابة طلب سيدة قلت لاجود الا من الموجود ودراهمي التي معي ربما تكفي لوصولي الى بلادي ولست مجبوراً للاستدانة لأجل ان اضيّف سيدة لأعرفها فدعاني لتناول الطعام في مطعم « كراند اوتيل » ودعى المحرر وذهبنا بعربة . و « الاوتيل » واقع جانب بناية الأوبرا وقاعة الطعام كبيرة جداً فيها موائد كثيرة جلسنا على مائدة منفردة

***

بواسون آنكله :

واحضر لنا الندل « الكرسون » القائمة وبما اني ضيف الشرف قدملي القائمة ، فأخذتها كأني اعرف القراءة وألقيت نظري عليها فوقع على كلمة « پواسون آنكله » فهمت منه سمك انكليزي فطلبت منه فقال لي ندره بك انك لاتقدر ان تأكل هذا اللون لأنه لايوافق مزاجك ولئلا اخجل امام الافرنسي قلت له اني استطيب هـذا اللون قال طيب وجاء السمك و « عينكم تشوف فخري » بعد ان تناولت اول لقمة ماذا حلّ بي لاأقدر ان اصف الحال التي وقعت فيها فقد جحظت عيوني واحتبست اللقمة في حلقي وكدت اختنق منها فشربت كأساً من اللبن الممزوج بماء الفيشي الى ان قدرت ان ابلع اللقمة الأولى ووضعت الثانية بفمي فكدت اقضي منها ولم أعد اعرف ماأعمل و « بألف زور » بلعتها بعد شرب كأس لبن وماء

المفيشي فنادى ندره بك الكرسون وقال له خذ هذا الصحن واحضر له صحن لحمة « شاتو بريان » وقال أما قلت الك انك لاتقدر ان تأكل هذا السمك قلت استحيت من رفيقك بأن ينظر الي بعين الأستخفاف قال لاتفكر بهذا وكل شيء لاتعرفه سل عنه قبل الاستعمال لئلا تقع بمثل ماوقعت فيه الآن ولا اقدر ان اصور للقارىء مقدار خجلي بعد هذا الفصل واخذت على نفسي عهداً بأن لاأمد يدي الى طعام لاأعرفه وكانت تلك الحادثة آخر ماوقع لي من نوعها ولم أقع في مثلها بعد ذلك اليوم .

تم الجزء الثاني : يتبع

مشتمل الجزء الثاني

الصفحة

الصفحة

الصفحة الصفحة

الصفحة

الصفحة

***

مشتمل الجزء الأول

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٣	٦	الأعلا	الأعلى
١٤	٧	يأمون	يؤمون
١٦	١٧	كان	ان كان
١٧	٢٠	حزامون	حزامين
٣٨	١٣	المتجولون	المتجولين
٤٩	٢٣	شيئاً بعيداً	شيء بعيد
٥١	٢٠	شفتاها	شفتيها
٥٣	٦	الدآب	الذئاب
٥٣	٩	هنّ	هم
٥٣	١٠	المباعة	المبيعة
٥٤	٢١	ثلاث	ثلاثة
٥٥	٢	ومضى	ومضت
٦٤	٧	حكومة	حكومته
٨٤	١٥	مقصر	مقصراً
٩٠	٨	المصريون	المصريين
١٠٩	١٢	ثلاثة	ثلاثاً
١١١	٨	استقلنا اي	استقلنا

ثمن النسخة
(١٠٠) ق